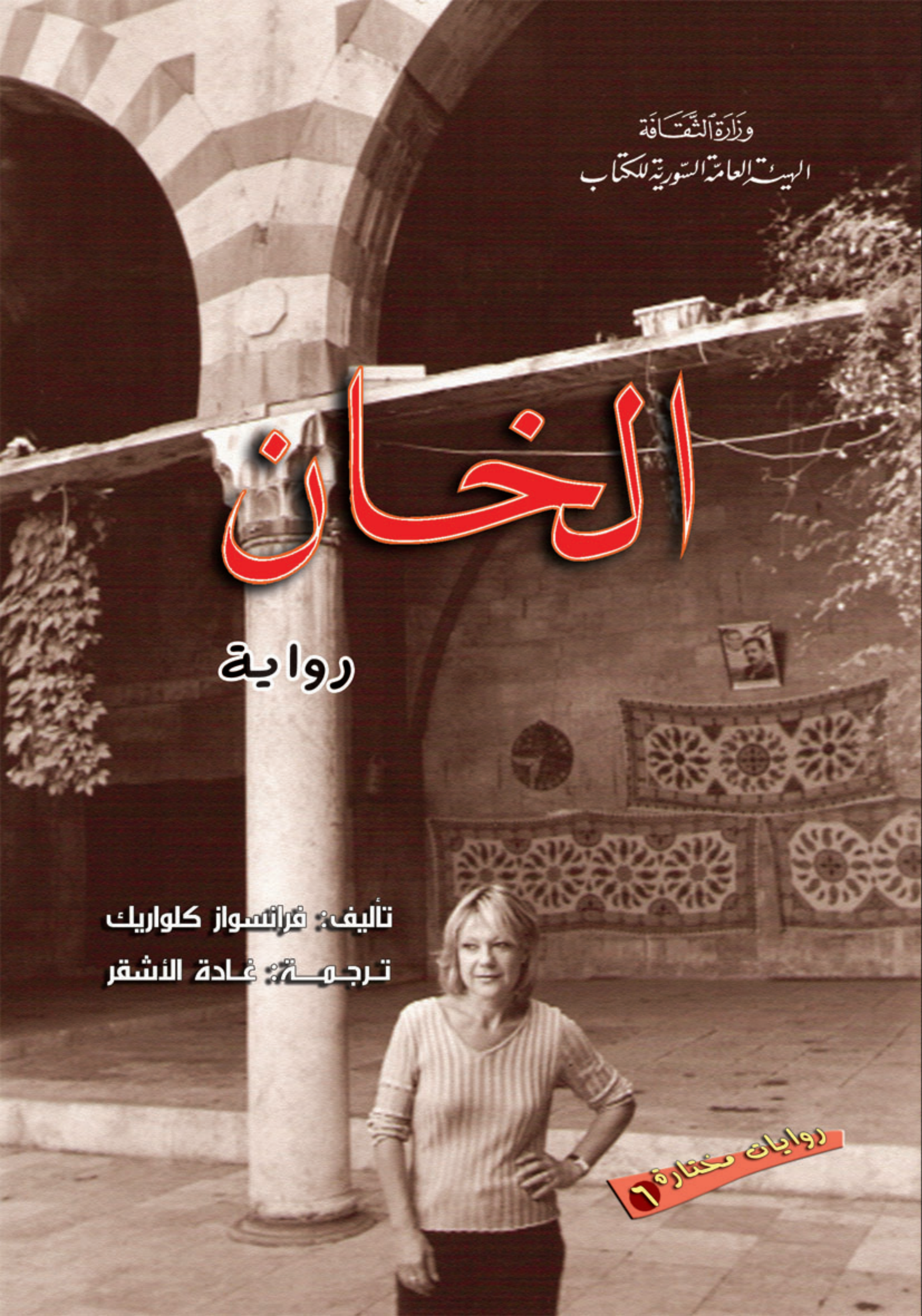


وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الخان

رواية

تأليف: فرانسواز كلواريك
ترجمة: غادة الأشقر

روايات مختارة ٦

الخـان

تصميم الغلاف

فراس نعوف

الخـــان

رواية

تأليف: فرانسواز كلواريك
ترجمة: غـادة الأشــقر

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

العنوان الأصلي للكتاب:

Françoise Cloarec

Le Caravansérail

الخان : رواية / تأليف فرانسواز كلواريك؛ ترجمة غادة الأشقر . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م . - ١٥٢ ص؛ ٢٠ سم.

(روايات مختارة؛ ٦)

١ - ٤٨٤ ك ل و خ ٢ - العنوان ٣ - كلورايك

٤ - الأشقر ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

روايات مختارة

«٦»

شكر

يعود الفضل في كتابة الجزء الذي جرت أحداثه في حلب إلى ذكريات قنصل النمسا وبلجيكا، آدولف بوش الذي استقرت عائلته في حلب منذ عام ١٨٠٩. وأتوجه بالشكر لابنته جيني بوش – ماراش التي ائتمنتني عليها.

استُلهمت قصة الهزة الأرضية من رسالة وجهها القنصل الفرنسي في ذلك الحين، ايدمون دوليسبس، إلى السلطات الفرنسية. أشكر جان – كلود دافيد لأنه أطلعني عليها.

شكراً لمريم انطاكي ودانييل آرنو وآنييس بيرتمو وكارلوس فرير وناتالي كاليسن ورنا قباني.

وشكراً أيضاً لروبيرتو بورغيزي وبيير أودار.

أن يعرف المرء أنه لا يكتب من أجل الآخر، أن أدرك أن هذه الأشياء التي سأكتبها لن تجعل، أبداً، من أحبه يبادلني حباً بحب، أن تعرف أن الكتابة لا تعوض عن شيء ما، ولا ترقى بشيء وأنها موجودة تماما في المكان الذي لست موجوداً فيه أنت: تلك هي بداية الكتابة

رولان بارت

«شذرات من خطاب في الحب»[1].

---

(1) ترجم هذا الكتاب من قبل كل من حبيب حطيط والهام سليم حطيط، نشره المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب في الكويت عام ٢٠٠٠. (المترجمة).

الجزء الأول

المسير

غيرة، هجر، اقتصار، رغبة، فوضى، شر، انهيار، تبعية، سقوط في الهاوية، جرح، سير، نسيان، خضوع، وحدة، مغادرة، انتظار، سير، ضيق، ألم، غرق، يأس، جنون، شكوى، بكاء، ابتعاد، تفكير، غرق، سير، فهم، استمرار، دمار، تمزق، عبور، سقوط، تعلق، إنهاك، رفض، إبعاد، فوضى، قتال، كره، خسارة، تعقل، اشمئزاز، عذاب، قنوط، سير، خطاب، تملك، تمزق، بقايا، ظل، اختفاء، تعب، كره، رحيل، تخلي، إنهاك، وجع، رفض، طريق، ظلام، هذيان، مسير، بؤس، ضغينة، ألم، عرق، محنة، إعياء، إحباط، قسوة، قطيعة، انقباض، تدفق، مسير، برد، ثقل، مطر، غضب، غيرة، حب، محنة، اجترار، حر، تخوم، حب، منفى، حرب، مقاومة، متعة، جسد، سقوط، محنة، مسير، مسير، مسير، سر.

I
١٨١٩

كان وحيداَ، في قطيعة مع الزمن، ها قد بدأ الانتظار.

إنه انتظار طويل ومضطرب، على أحر من الجمر، ومن ثم انتظار متعقل. كان عليه أن يهدأ، فلديه الوقت، متسع من الوقت.

خيم الهدوء على كل شيء، وسيطر عليه الخوف.

الوقت يمضي ببطء كما لو كان معلقاً؛ فالرغبة تأبى الانتظار؛ لقد أصبح الانتظار ثقيلاً وقلقاً.

لم يكن هناك سوى الصمت المطبق.

كان جالساً في جمود حزين، منسوج من آثار الزمن والذاكرة والأمل. انتظار ساكن وعنيد.

فمع مرور الأيام والليالي، فكرة وحيدة فقط كانت تراوده، نابعة من أعماق توقه وحزنه.

كان لديه حدس يائس، ما زال حدساً حتى ذلك الحين.

تحوّل كيانه كل إلى انتظار، لم يعد لديه رغبات أو أفكار، سوى رغبته في الشعور بأنها تقترب، والإحساس بأنها بين

ذراعيه. لم يعد يتحرك، منتبهاَ إلى أقل ضجة يمكن أن تنبئ عن حضورها. كل رعشة صغيرة حتى لو كانت غير مسموعة، كانت تبعث في نفسه الأمل بوصولها، ليملأ هذا الفراغ الذي يحتل المكان بأكمله. كان ينتظر دون كلل أو ملل ورأسه مثقل ومسكون.

كان ينتظر وحيداً في الصمت.

كان يخشى العيش دونَها، فغيابُها يُشعرُه أنه ناقص.

في إحدى الأمسيات، اضطرب الصمت وشعر بالتوتر من رأسه حتى أخمص قدميه. لكن هذا الصوت لم يكن صوت خطواتها؛ كان وقع هذه الخطا متثاقلاً وبطيئاً ومتكاسلاً جداً.

II

انشقت الأرض تحت قدميه فاغرة فاها. مصعوقاَ، شعر بالاضطراب يعصف بجسده وبشفرة مقصلة باردة، جليدية تنقض عليه. ها هي نقطة اللاعودة.

اختُزل كل شيء في صورة واضحة ومؤلمة، حملتها كلمات الشخص الذي وصل للتو.

وبصوت مختنق قال مرتبكاً:

- لقد رحلت، ثم أضاف بسرعة:

- مع أحدهم.

لو كان من الممكن للإنسان أن يموت ألماً، لمات في الحال، حيث هو.

كان الهلع من تلك الرسالة يضاهي في شدته عمق حبه لها. لقد ذهبت تبحث عما هو أكثر حميمية وصدقاَ وطهراَ مما كان يعتمل في داخله. إنهما خلقا معاً لحظات غير متوقعة، لحظات جميلة، جميلة فقط. كان كل منهما يحب الآخر ويفهمه، يتأمله ويحتويه. لقد عرفت كيف تسكن كيانه وجوهر قلبه.

إنها الخيانة.

سيكرهها بشدة، بقدر ما أحبها.

سيستبدلها بالغضب؛ بغضب عارم هستيري لا يصدق.

III

حان وقت الاختفاء وترك الانتظار في هذا المكان، والسير حتى الشعور بالغثيان.

خرج من صدره نفس غريب عنه وخنقه. كان الغضب هو الشعور الذي اجتاحه مباشرة بعد شعوره بالتلاشي. استقر فيه كالعاصفة، لكنها لم تنجل كما لو أنها مظهر من مظاهر رداءة الطقس، فتركها تترسخ في نفسه. استسلم لها وحافظ عليها وأطال أمدها. أصبح الغضب شغفاً مهيمناً، أطلق له العنان، كان ينعش نفسه وجسده، فتركه يتراكم. إنَّه غضب غريب الأطوار مثل إعصار مكوّن من نوبات بكاء متعاقبة ومن تشنجات، دون التفوه بأية كلمة. طاقة رائعة تستنفر كيانه كلّه في اتجاه واحد. إنها الجواب الأوحد الذي عثر عليه، أوصلته إلى حدود ذاته، إذاَ لم لا تحمله إلى حدود العالم؟

إنه الرحيل.

عليه أن يفرض إرادته، أن يخطو الخطوة تلو الأخرى، أن يتقدم ويتحرك ويغوص في أعماق العالم. كان يشعر أنه في قلب عاصفة لا يوقفه فيها شيء ولا يتعلق في أثنائها بشيء.

عليه أن يسير كما يتنفس، دون توقف؛ ودون أدنى تفكير، عليه أن يضع قدما أمام أخرى ويعيد ذلك بشكل آلي دون كلل أو ملل. فعليه أن يبعد الأشياء وأن يبتعد عنها ويجتث العنف بخطوات وبجهد جسدي وإرادي. دفعه الغضب إلى الأمام، كان غضباَ لا نهاية له، كان انفعالاً وغيظاً وحقداً وحنقاً.

IV

لا بدّ من الرحيل، عليه أن ينفصل ويبتعد ويذهب إلى مكان آخر ويضع قواه على المحك. كان عليه أن يخرج عن المألوف. أراد أن يكشف ذاته في فضاء آخر، في زمن آخر، وأن يعثر على الجوهر. إنه الرحيل من أجل تجنب الشفقة، واستعراض مشاعر الحزن، كي لا يبقى أسير حب فشل بطريقة موجعة.

أراد تغيير كل شيء، الأمكنة، الأشخاص، المناظر، اللغة. أراد أن يتعلم الوحدة لأنها أصبحت حتمية بالنسبة له.

سار وفق إيقاع منتظم، جسمه مشدود باتجاه مكان آخر لا يعلم عنه أي شيء. كان تصميمه نهائياَ، لا شيء يمكن أن يوقفه. تقدّم كحاج باحث عن وعد بحياة أخرى، وربما كان يتقدم للوصول إلى مصالحة ما.

زج بجسده وبرأسه في اختبار؛ سار وحيداً نحو الشرق، نحو الأصل، دون سند. لم يعد مرتبطاً بأي مخلوق، يعيش في وحدة مطلقة، كل خطوة كانت تنقله بعيداً عنها. لم يعد يأمل شيئا، ولا وجود لأي شيء على الإطلاق بعد الآن.

طبعَ خطاه على الأرض، تاركاَ أثراَ بسيطاً وخفيفاً، وتقدَّم مختبراَ ضعفه الجسدي وقوته على حد سواء. اقتصر العالم كله على أداء جسده وانتظام تنفسه، وعلى مقاومته؛ سلم أمره إلى جسده.

كان يغذي جراح حبه باستمرار، باستحضار الصور وذكريات الكلمات والأحداث المؤثرة. كان يكررها بشكل هاجسي، مثل خطواته.

لم يكن يرى شيئاً من المناظر التي رسمتها الطبيعة. كان يقيس أنفاسه، منغلقاً على الخارج، سائراَ بمحاذاة الزمن وخارجه. كان يثير الغبار مركزاَ على مشيته متنبهاَ لخطواته؛ طالما أنه يسير فهو على قيد الحياة.

رغم أنه ثمل من التعب، ومنهك من الجهد، حوّل الألم إلى قدر، ووضع الاختبار الجسدي في مستوى المحنة النفسية. إنه ولع أليم يجب التكفير عنه بالعذاب.

عليه كل يوم مقاومة ما يحيط به، ومقاومة نفسه. أصبحت الطريق مسكنه وموطنه؛ يسير حتى آخر بريق من ضوء النهار، وينام حسب الصدف. عليه كل ليلة أن يجد في وحدته مأوى لا تتوفر فيه أدنى سبل الراحة. في كل ليلة يستعيد كوابيسه ويلتقي بالعدم، ويعيش تجربة الموت والفراغ. كل ليلة أمضاها، حملت

له تهديداً بالفناء. في أغلب الأحيان، التصق بالأرض مرتجفاً من البرد، يوقظه الفجر، فيترك الظلمة ويُبقي على مزاجه السيئ. تعرى بمحاذاة الزمن في محيط مجهول لا يراه. في مسيرة بلا نهاية، وتقدم بطيء نحو الموت.

ذهب إلى أبعد من حدوده، اكتشف صورة لنفسه، لم يكن يعرفها من قبل. إنه وحيد، يعيش حالة انتزاع وانفصال. عليه أن يتجاوز قدرته على الاحتمال كي يبقى على قيد الحياة.

قدماه تصطكان من شدة التعب، مثخنتان بالكدمات والجروح، والطريق الشاقة تنكأ جراحه.

صيف قارظ، وشتاء قارس.

سار في العرق والبرَد والبرد والضباب، بثياب مبللة ملتصقة بجسده، شعر بالجوع وبرغبة بها.

حوّله المشي في القيظ إلى جرح فريد من نوعه، واستحوذ عليه هاجس الماء والألم وهاجسها هي. كان حمله ثقيلاً.

خارت قواه وانتهى به الأمر إلى الاستمتاع بهذا التعب؛ إنهاك شديد وغير مألوف.

ما زال على قيد الحياة، فجروحه هي الدليل على وجوده. كان يشعر، وبعمق، أن جسده في اتصال مع العالم وأن قدماه تطآن الأرض.

انقشاعات وزخات من المطر وعواصف. أفكار دون كلمات.

إن انهيار هذا الشيء النقي الذي سببته القطيعة تجاوز كل ما حدث سابقاً. هذا التجاوز جعله يمشي؛ مع كل زفير، كان يأمل أن يخرجها من قلبه، مع كل خطوة كان يريد أن يبتعد وينفصل عنها، مع كل خطوة.

فالمقاومة الخارقة التي سكنته كانت على نقيض الضعف الذي دفعه للرحيل. كان يسير على إيقاع خطواته، مركزاَ على ذاته، منشغلاَ بأفكار لن تكلل بالنجاح إطلاقاَ. كان يتقدم ببطء، كان يتقدم في وحدة.

كانت هناك قوة مجهولة تدفعه الى إثارة الأفكار الأكثر ألماً. إذا تخلص منها للحظة أو تمكن من هزيمتها، تسيطر عليه أفكار أخرى. في كل لحظة كان يستعيد تمزقه، كي يعطي من جديد القوة والمبرر لمسيرته. كان يلمس جرحه، يمعن النظر فيه، يقلبه، يفسره، ينشطه، يعيشه ثانية، يجتره، يعاود السير فيه، كان هذا مؤلماً بالنسبة له. لم يعد يستمتع بالحب إنما بالفراغ الذي تركه في حياته. كان يمكنه أن يمضي ساعات وساعات مع كلمة منها.

رحل كي يبعدها عن ناظريه، لكن نظرة تلك المرأة ترسخت في قعر عينيه، تذكره بها باستمرار وبقسوة.

كان الألم بالغاً لأن المتعة كانت بالغة، ولأنه خُدع خلال انتظاره، على أمل أن يبقى مخدوعاً إلى ما شاء الله.

كان الصمت في بعض الأحيان أكبر من طاقة احتماله، وبدا له أن الطريق لن تنتهي أبداً.

لم يتخيل شيئا عن وصوله.

V

متابعة المسير

بانقضاء أسابيع وأشهر من المسير، تخلص من كل ما هو غير ضروري. تلخصت رؤيته للحياة في مسألة التنقل من مكان إلى آخر؛ كما اقتصر تفكيره على ما هو أساسي، كان لا ينبس ببنت شفة و لم يعد لديه أحاسيس. أراد أن ينسى التفكير، على أمل أن يفكر من جديد. ورغماَ عنه كان منتمياً، من خلال جسده، إلى هذا العالم، إذ كان يشعر بالأرض تحت وطء قدميه، يتنفس روائح الطبيعة، ويكتشف نجمات جديدة في لياليه التي لا نهاية لها.

لقد واجه قوى الطبيعة، عبر الأنهار واجتاز أصقاعاً غير مأهولة، تحمّل الريح والشمس والمطر؛ رافقه الموت والخوف يومياَ. اجتاحته نوبات الغثيان والحرارة بموجات مريرة؛ عبر البلاد والحدود وما يزال مسكوناً بها.

كان غريباً على الدوام. الغريب، كلمة كان يقرؤها في عيون الذين يرونه ماراَ؛ هذا كل ما كان يريده.

من هذا؟ من أين أتى؟ إلى أين يمضي؟

منفياً من مكان آخر، قطع صلاته مع العالم وذهب إلى أبعد من حدود نفسه. ماضياَ عبر فضاءات أخرى، أصبح شيئاً فشيئاً شخصاً آخر، جعل من نفسه إنساناً غريباً عن هويته الخاصة.

احتلت الأشياء التي لم يكن يعرفها، مكاناً أكبر من تلك التي عرفها.

لم يستطع أن يصف الأماكن التي مرّ فيها، رأى الكثير من النجوم، كان يتذكر الضياء والليل والريح التي كانت تعصف وتعيق وتدفع وتبعث على النشوة والجنون؛ كان لا يزال يتنفس غبار الطريق.

لكنه تجاهل المناظر الطبيعية.

تقدم في هذا العالم، ممضياَ الفصول وحيداَ إلى أبعد حد، منشغلاً ببناء سد أمام الصور المتدفقة والمزعجة.

رأى نفسه يركب قارباَ وما زال مريضاً؛ كان أكثر من مريض طيلة أسابيع، تمنى الموت وطلبه؛ كان يشعر بتشنجات مفاجئة وغير متوقعة ولا يمكن مقاومتها؛ جسده مضطرب.

أراد أن ينتهي من هذا كله.

اختلطت كلُ الدلائل التي وضعها، واضطربت نظرته. كان في معظم الأحيان تائه الذهن وتائه الطريق.

هل كان لمسيرته هذه من عودة؟

بيمارستانات، علاج، مشفى، جنون، مؤسسة، شفاء، هذيان، هلوسة، ذهان، معتوه، نفسية، اضطراب، فلسفة، تعويذ، عصاب، هندسة معمارية، أبيقراط، نظرية، طب، كلام، د. غاليان، عته، مرض عقلي، مزاج، طبع، ابن سينا، مداواة، ملاحظة، وصف الأمراض، عيادة، عضوي، جنون، غاضب، احتواء، عناية، دواء، علاج، ملين، موسيقا، نفس، إقصاء، حكيم، صحة عقلية، انفعال، خبل، أرعن، ابن سينا، انغلاق، تلبد الأحاسيس ، جسم، آلام، ماء، علاج، حكاية، نباتات، حديث، طبيب، كلمات، «دكتو»، إيحاء، ممارسة، كلمة، دماغ، حنان، مشفى، شجن، دستور الصيدلة، فكر، ابن سينا، وصفة، ينبوع، عزلة، اضطراب، أوجاع، خلية، حزن، أدوية، ينبوع، جسدي نفسي، هيجان، حجز، مأوى، نفسانية، جنون، عصاب، علاج، كلام، كلام، كلام، كلام، كلام، كلام، كلام، كلام، كلام، كلام، كلام، كلام.

VI

وصل إلى دمشق بعد أن أنهى رحلة منهكة، أضناه خلالها العطش والجوع والقذارة والأمراض الجسدية. بدا كل شيء ميتاً وجامداً لا يتحرك، في هذا الوقت من النهار، حيث كانت الشمس أكثر حرقة والحرارة أشد قيظاً. سلك الطريق المستقيم رازحاً تحت وطأة الضوء المبهر، يرافقه، بالفكر، ظل شبح القديس بولس.

وحدها، الرغبة في الاستمرار بالعيش كانت باقية لديه، لأنه أزال ما عداها، كلّ ما عداها.

وجد نفسه في حالة من الإنهاك، بسبب الحرارة والزحار اللذين أصاباه، لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يُعبر عن هويته. كان منهكاً ومستهلكاً من التعب، لكنه كان يشعر بأنه إذا ركن للراحة، فهناك شيء ما سينتهي.

احتمى بحائط في ظل المسجد الكبير، وحلّ الليل على جسده المتلاشي. في الصباح أخذه رجل إلى المستشفى، بيمارستان نور الدين، وهناك أعطوه أدوية وجعلوه ينام.

في هذا المكان حيث يخيم الجنون، خلق لنفسه وجوداَ آخر، اخترع استخداماً آخر للعالم، مقتصراَ على كل ما هو أساسي.

فباعتبار أنه لم يتمكن أبداً من التعبير عما يعتمل في ذاته، راهن على جسده.

هل أمسى غير مبال بذاته، هل تحرر منها؟

لن يقول لأحد ما شيئاً قط، لا شيء البتة.

كان بادياً أنه لم يعد يأمل شيئاً، ولا يشعر بوجود شيء ما من حوله، اللهم سوى التماس مع حجر بركة المشفى والنور الساطع الذي يغمره وخرير المياه. وأخيراً، أصبح في حالة سكون مطلق، بعد طول تحرك.

غدا بقايا إنسان، حتى أنه لم يعد ينزعج من الآخرين. كان يشعر بعظمه تحت لحمه؛ كان الألم، الذي لم يكن في البداية سوى ألم معنوي، ينهش جسده. لم يعد له أفق غير أفقه الداخلي.

قرر ألا يفعل شيئاً إزاء فكرة الموت والألم والقلق. كان كل ما يشغله خلال بعض الليالي محاولة لمس انعكاس ضوء القمر الذي يرقص على سطح مياه الحوض. شبح الجنون كان يهدده، لكنه كان مطمئناً، لم يعد يرجو شيئاً. اكتفى بلحظة النور، ولم يعد يبكي إلا في أحلامه.

كان متعلقاً بجرحه الذي لم يعد سوى جرح مجرد، يحافظ على وجوده كل يوم وكل ليلة خوفاً من أن يلتئم، لأن في بقائه دليلاً على أن هذا الوله كان موجوداً في يوم من الأيام.

كان هذا الجرح ملكيَّته الوحيدة، وسبب وجوده حتى. لم يعد يدرك إذا كان قد مشى ليتخلص منه أم كي يحتفظ به.

الجزء الثاني

الطبيب

VII

أنا طبيب في بيمارستان نور الدين. في هذا المكان يقاس الزمن بشكل مختلف، ليس وفقاً لتوقيت فتح محلات السوق المجاور وإغلاقها. قد لا يكون للوقت وجود. تمضي الأيام على إيقاع صلاة الآذان التي يتلوها مؤذن الجامع الكبير، القريب جداَ من هنا.

رأيت منذ عدة أشهر رجلاَ في حالة جمود، يسند ظهره إلى حجارة حوض المشفى. لم يعد أحد يلاحظ وجوده هنا، إنه غائب، بعيد، لا ارتباط له بأي شيء.

إن البيمارستان، البعيد عن ضوضاء المدينة، هو ملجأ النفوس المريضة؛ في هذا المكان تكون المشاعر غريبة والتأملات فريدة من نوعها. إذ يعتبر الأطباء هنا، مثلي، أن منشأ الأمراض الجسدية يمكن أن يكمن في النفس.

ظن الجميع أن هذا الرجل المنهار لا يتكلم اللغة العربية، أو أنه فقد القدرة على الكلام؛ بدا أنه فقد طعم المفردات والإشارات.

تجاهله المرضى وهو من جهته لا يدع عينيه تقعان على أحد، ويحبط كل محاولة للتقرب منه. ما هي اللغة الواجب إتقانها من أجل التحدث إليه؟

قلت له في أحد الأيام، دون أن أعرف إن كان سيفهم:

- على المرء أن يتذكر ليتمكن من النسيان.

بل أكثر من ذلك، قلت لنفسي في يوم آخر:

- في بعض الأحيان ما يبقى في ذاكرة الإنسان يكذب عليه.

لم يلق كلامي أي نوع من الصدى في نفسه.

غرق تماماً في ألمه الذي لا يمكنه الإفصاح عنه.

بدا معلقاً بين عدة عوالم؛ عالم الحياة والموت والجنون. اختلط السأم والقلق والعجز والخدر بالتعب الجسدي.

رغم ذلك، فهو يثير اهتمامي، إذ إنه يتمتع بحضور قوي، وفي الوقت عينه هو غير موجود. لم يعد ينتمي للمكان الذي أتى منه، ولا ينتمي إلى هنا، إنه في اللا مكان.

بدا جميل الطلعة في نحوله وفي يأسه؛ لا أتخيل كم عمره، أهو في الثلاثين أم في الأربعين من العمر؟ حتى عيناه لا مباليتان، لا تتحركان في محجريهما إلا عندما أتحدث إليه في بعض الأحيان.

يركز نظره على نقطة في مكان ما، قريب من الليوان الشرقي، حيث نقشت تلاوات من القرآن الكريم، تتحدث عن الطب والشفاء والمرضى؛ أيراها يا ترى، أيقرؤها؟

أيشعر بالرسالة التي يحملها الماء والنور في الفناء المزدان بالورود؟ أيحس أن فن العمارة هنا، فن هندسة الحجارة، هو أيضا فن هندسة الفكر؟

بُني هذا المكان منذ عدة قرون بأسلوب معماري جميل. وإن تدهورت أوضاع البيمارستانات في الوقت الحالي ولم تعد تستقبل سوى المصابين بأمراض نفسية، ما زال المرء يجد فيها ما يكفي من الجمال والشاعرية لتخفيف أي داء، مهما كان نوعه.

اقتربت ببطء وخفة من ذراعه وأمسكت بيده ملتمساً معصمه. أنهكته الوحدة أكثر بكثير من التعب. شعرت بإيقاع دقات قلبه من خلال الدم الجاري في عروقه. قلت له إن الغياب مرض يصيب الجسم والقدرة على الكلام، لكنني أشعر بالحياة تتدفق في نبض قلبه؛ فتغضن وجهه الأسمر ذو الملامح القاسية، بالتجاعيد.

ما زلت لا أعرف إن كان يفهمني؛ بحثت عن الكلمة الملائمة، التي يمكنها أن تلمس شيئاً ما في نفسه، أن توقظ رغبة ما أو أن تخلقها.

حاولت الاستمرار في الكلام قائلاً:

- إن الكلام عن الألم وتسميته هي طريقة لتخفيفه وتجاوزه.

نظرة ذهول.

صمت مطبق.

الآن أصبحت آتي كل مساء لأجلس بقربه، إنه ينظر إلي فعلاً منذ بعض الوقت؛ عيناه الفاتحتان، المتعبتان تنظران مباشرة في عيني؛ نظرته ثاقبة.

بقيت مدة طويلة إلى جانبه، أكاد ألامسه؛ لم يتكلم، مستغرقاً في مكان آخر لا أعرف عنه شيئاً.

أين الجنون لدى هذا الرجل؟

أين قدرته على الكلام؟

صدح صوت المؤذن، في صمت يكاد يكون مقلقاً، وكأنه صوت آت من مكان آخر بعيد، بعيد جداَ.

VIII

في إحدى الأمسيات، وبوجه شاحب لفظ قصته من جوفه بكلمات عربية، قاسية، مختصرة، بسيطة، نقية؛ كلمات قالها بلغة ليست لغته، وعبرت عما يريد قوله بشكل مباشر. لقد منحته الحرارة إدراكاً حاداً.

كنت أشعر أن قصته هي قصة حب ضائع، فليس هناك إصابة عضوية تفسر حالته.

خيّم الليل على البيمارستان وأنير الحوض بضوء خافت.

فاحت رائحة الياسمين.

اسمه جان - باتيست، آتى من فرنسا ويعمل طبيباً.

أراني كتاباً لتعلم اللغة العربية. فقد التقى على سطح المركب الذي أتى به إلى الشواطئ السورية تاجراً فرنسياً من حلب، تدرب معه على الكلام بلغة هذه البلاد.

كانت رحلة شقاء عبر طرقات وعرة ومغبرة، تغلب فيها يأسه على كل الحدود. سافر باحثاً عن شفاء لألم حب لا ينتهي؛ فمن

غير الممكن اختبار شدة الحب، لكن إذا تمّ ذلك قياساً لما يكابده الإنسان، فإن حب هذا الرجل قد يكون حباً جماً.

إن الحدود التي اجتازها ليست جغرافية أو اجتماعية فقط، فالمغامرة كانت جسدية ونفسية؛ والانتقال فعلياً وروحياً، والطريق التي قطعها كانت كذلك في واقع الأمر، لكن الرحلة أيضا كانت رحلة اجتياز لرغبته. اختار المنفى بإرادته، في بحث يائس للعثور على شيء من ذاته التي كان عليها قبل أن يقع في حبها. تعتبر رحلته تجربة في تجاوز المحن، وانتصاراً على كافة العقبات التي واجهته. لقد خضع لاختبار المسافات، وتجربة الحدود. حاولت أن أجعله يقبل بهذا الأمر بالذات، كي يستطيع في نهاية المطاف الخروج من كآبته.

هل تحمل طويلا الألم والأحداث والمخاوف والوساوس الداخلية والصور التي تلاحقه، ليموت أم ليخلق لنفسه كياناً جديداً؟

لقد خاطر بحياته، وعرّض نفسه للقتل والمرض والإنهاك.

لماذا كل هذه المعاناة؟

كنا نجلس كل مساء إلى جانب بعضنا البعض، لنتحدث أحياناً ونصمت أحياناً أخرى. أكدت له أنه للوصول إلى قرارة النفس، يحتاج المرء إلى الآخر.

كان يبتسم أحياناً، لكنني كنت دائما أرى في عينيه، خيال تلك المرأة التي أحبها ثم فقدها.

إنه في حالة غياب، بعيد عن ذاته، لا يأمل شيئاً من هذا العالم، سوى أن يدعه وشأنه.

كنا دائماً نأتي بموسيقيين من أجل معالجة المرضى؛ فإن فوائد الموسيقا في شفاء المرضى لم تعد بحاجة إلى إثبات. إذ يوصي العديد من الأطباء باستخدام الموسيقا لعلاج الكآبة، فهي تثير في نفس المريض روحانية خاصة. لقد اعتُبرت أنها علاجية، وتتمتع بتأثير على الروح والجسد يشبه سيلان المياه في الأحواض.

ولكي أشجعه على الخروج من حالته، نظمتُ مجدداً أمسية موسيقية في المشفى، على غرار الأمسيات التي كان يقيمها الخليفة الوليد؛ عزف على المزمار والطبلة والعود والقانون.

وقلت له: - يجب أن يدع الإنسان الموسيقا تتدفق في نفسه، ويتركها تدخل.

ورويت له مثال أغنية الجمالين، الحداء، وهي الأغنية الأكثر بدائية في الغناء العربي، التي تجعل قافلة الجمال تتقدم، حتى لو كانت منهكة أو عطشى.

IX

كانت حركاته بطيئة، كما لو أنه يتعلم من جديد كيف يعيش؛ لم يعد يخشى الفناء، لأنه قد سبق وعاشه.

وأخيراَ، بدا أنه يعيد اكتشاف الحياة، شيئاً فشيئاً.

تقوم عائلات مرضى البيمارستان بزيارتهم كل يوم، أما هو فقد كان وحيداَ، ولم يبق له ما يربطه بهذا العالم سوى ألمه. حدثني عن وحدته، عن المسافة التي وضعها بينه وبين الآخرين وعن حزنه الناجم عن عدم قدرته على معالجة الناس الذين وثقوا به.

لم يعد هناك من موجب لبقائه في هذا المشفى، إذ عولج فيه جيداً، وازداد وزنه لأن الطعام كان لذيذاً والأدوية ناجعة.

أحببت فكرة أنه آت من بعيد، أحببت صمته ورزانته؛ قلت له أنه يجب أن يخلق حياة خاصة به، ويجد أناساً آخرين؛ حاولت أن أجعله يعيش أحلاما أخرى.

وما زال يصدف أثناء نوبات الحرارة التي تصيبه أن يهذي وينادي هذا الحب، ويتحدث بانفعال عن خيانتها. فأحدثه بكلمات

هادئة، وأحاول إقناعه أن ما أراده من تلك المرأة ليس بمقدورها، وأنه كان يعرف ذلك منذ البداية، وأنها نكأت جروحا قديمة. إنه قدّس حباً لا أمل منه، وحلم بإنسان لا وجود له. قلت له إنه لم يكن سوى ضحية نفسه.

- لقد دفعت من ذاتك بما فيه الكفاية خلال هذا البحث الذي قمت به وحيداً. لست مجبراً على أن ينتهي بك المطاف بالتضحية بعقلك أو بحياتك.

تابعت مصراً:

- ما هي الخطيئة التي تكفر عنها؟

لم يعجبه سؤالي، واخترقتني نظرة رمقني بها، وأدركت أنني أصبت فيما فكرت به.

كان ينوي الذهاب إلى حلب، فله ابن عم من الدرجة الثانية، مستقر هناك ويعمل تاجراَ.

ما زال بحاجة لبعض الوقت.

لقد تعلقت به، وحدثت عائلتي عنه وعرضت عليه الإقامة في منزلي لبعض الوقت. فمسكني واسع وجميل، ويتمنى ابني العمل بالتجارة وتعلم اللغة الفرنسية.

تردد جان - باتيست، معتقداً أنه ليس بالصحبة الطيبة.

في النهاية، وافق.

دمشق، مشمش، وردة، جبل قاسيون، عطر، سوق الحميدية، قباب، قصر العظم، حرير مقصب، الشرق، الغوطة، حي العفيف، واحة، جنة، شجرة زيتون، صلاح الدين، الجامع الكبير، القديس بولس، حنانيا، قبر، مارستان، المسجد الأموي، نهر بردى، الطريق المستقيم، القديس يوحنا المعمدان، قلعة، المدينة القديمة، سور، مؤذن، مئذنة، فسيفساء، مدرسة، نبع، بيت نظام، حديقة، بستان فاكهة، حرملك، نور الدين، حمام، خان أسعد باشا، خانات، باب شرقي، باب توما، تحف *مطعمة*، رخام، مئذنة *قايتباي*[١]، سوق، يوم الجمعة، خان، حنانيا، سليمان، ضريح، شجرة ليمون، قاعة، ياسمين، منبر، قبلة، نافورة ماء، حدائق، بردى، بساتين فاكهة، مقاهي، أشجار برتقال، التكية السليمانية، باب الصغير، خلاصات عطر، حب هال، نزهة، اكتشاف، شعور، انبعاث، سير، كلام، أزقة، منازل، حمامات، ولادة جديدة، فكر، حرارة، تاريخ، تين، مسك الرومّ[٢]، حمير، باعة.

---

(1) وردت في النص الفرنسي دون كلمة مئذنة، وبالرجوع إلى الكاتبة تبين أنها مئذنة الجامع الأموي الغربية، وسميت على اسم السلطان المملوكي قايتباي.

(2) نبات عشبي بصلي من فصيلة النرجسيات. (المترجمة).

X

هادئة تلك الأيام التي تلت وصوله إلى منزلي، خيّم عليها جو من الصداقة، والراحة، والدراسة. أعطاه ابني دروساً في اللغة العربية، وعلمه جان - باتيست لغة بلاده. حرفاً بحرف، اكتشف اختلاف لغته عن لغتنا التي تكتب من اليمين إلى اليسار. وانتهى الأمر بزوجتي بأن تتجرأ وتنظر إليه، وتكلمه. وانتهى به الأمر بأن يراها، ويجيبها باقتضاب.

اختار أن يكون هادئاً، مكتفياً، لا يحتاج إلى شيء. كان متواجداً بالقرب من ذاته، المهم أنه متواجد. يحمي نفسه من المشاعر، ويقوم بسبرها طيلة الوقت. آمل أن يكون قد تخلى عن المُثُل العليا.

وفي منزلي عاش أيضا حياة تقشف، بحثاَ عن المطلق. تعافى جسدياً، لأنه قوي جداً. من كان يمكنه أن يتحمل كل ما عاناه دون أن يتأذى. لم يعد يصاب سوى بنوبات أصبحت نادرة تدريجياً. لكن مفردات الحب ما فتئت تموت على شفتيه.

كان يدور حول شيء وحيد، شيء مفقود، لم يشعر بوجوده إلا عندما غاب.

تحدثنا مطولاً، وخاصة أنا. رويت له بأن الصوفيين يستخدمون إيقاع المشي كي يتحرروا من التعلق بالدنيويات. وأجابني بأن بعض المتصوفين المسيحيين الذين يعيشون حالات قصوى من التصوف يتحدثون عن النار المطهرة، والمحن التي تسمو بالإنسان، هذا في حال نجاته منها.

علّمته بأن كلمة حكيم بالعربية تعني طبيب وفيلسوف أيضاً. إذ أننا لا نعالج فقط الجزء المريض من الجسد، إنما نهتم أيضا بالنفس.

وتعلمت من خلال ما قاله، وما لم يقله.

تحدثنا عن مرضى البيمارستان. شرحت له بأنه حتى لو لم تعد هذه الأمكنة تستقبل سوى المرضى النفسيين، فقد شغلت مكانة هامة جداَ في تاريخ الطب العربي، منذ القرن الثامن. إنها منشآت خيرية، مخصصة لعلاج كافة الأمراض، حتى النفسية منها، وكانت تستخدم أيضا كمؤسسات للتعليم النظري والعملي.

ولاحظ معي الهندسة المعمارية البسيطة والمجردة لمشفى دمشق، التي صممها نور الدين في بداية القرن الثاني عشر، وأكملها صلاح الدين. كان أحد أكبر المشافي التي تعود إلى القرون الوسطى، وذاع صيته في الشرق بأسره.

بينّت له كيف تشكل تراثنا الطبي من إرث متعدد. وشرحت له أيضاً كيف اختلط التراث اليوناني، المأخوذ هو نفسه عن تقاليد

بلاد فارس والهند والصين، بتجربتنا العربية. كانت لدي الرغبة بأن يفهم ثقافتنا وعلومنا ويحبها.

كان ينصحني ويساعدني، فاكتشفت من خلال معلوماته، طرق المداواة المتقدمة والأدوية المستخدمة في الغرب؛ وقمنا بمقارنة طرقنا العلاجية. اهتم كثيراً بالطريقة التي نخاطب بها مرضانا، وبفكرة أن كل علاج يمر من خلال الكلمة. من المؤكد أنني لو لم أسمعه كما فعلت، ولو لم يتحدث إلي، لكان اليوم في عداد الأموات.

أدهشته المعلومات التي يعرفها الأطباء العرب عن النفس البشرية. إذ أننا لا نظن فقط بأنها تساعد على الإصابة بالمرض الجسدي، إنما نؤكد أن لها مكانة أولية في الاضطرابات البدنية. فضلاً عن ذلك، فإننا نُصّر على أن النفسية عامل أساسي في المحافظة على الصحة، أكانت عقلية أم جسدية.

فقال لي: - لكن المريض الذي يأتي لرؤيتنا، يأتي ومعه الأعراض التي يشعر بها، وجسده المتألم، ولا يحمل معه تاريخه بالكامل.

- بلى، من المؤكد أنه يأتي ومعه تاريخه، تاريخه بالذات. إن الصحة العقلية الجيدة تشكل مظهراً هاما من مظاهر الحياة بالنسبة للإنسان المسلم. الاعتدال قاعدة من ذهب، والإفراط هو مصدر الأمراض.

- وبالطبع تجدني مفرطاً.....

- بالتأكيد.

تناقشنا في أمور تتعلق بالناس، وبه وبي وبالحياة، وفسرناها.

أحيانا، كنا نتحدث بأشياء تافهة. أحيانا فقط.

وأدرك عندها أنه قد أحب هذه المرأة من أجل الجانب المظلم فيها، من أجل جرحها. وسلّم بأنه من الممكن، أيضا، أن يكون قد رحل هرباً من الرتابة والملل والكآبة والتفاهة. وعرف في نهاية المطاف، بأنها ليست السبب الوحيد لليأس الذي يعاني منه، اليأس كان موجوداً بالفعل، قبل ظهورها في حياته بكثير، لقد أحيته فحسب.

- سألني قائلا: لكنك ماذا تعرف عن الحب، أنت الذي لم تعان من الغياب؟

غيرت الموضوع، فابتسم.

حدثته عن ابن عربي، هذا المتصوف والفيلسوف والشاعر الذي كتب أن خصوصية السفر، هي في الوصول إلى نتيجة أو إلى أثر. إذ يتضمن جذر هذه الكلمة أيضا معنى الكشف.

قلت له، أن تعيش، هذا يعني أن تتحرك. والسكون هو العدم .

وفكر بالذهاب إلى حلب.

XI

أتى من الغرب، فاكتشف الشرق. في كل يوم كان يتقبل أكثر فكرة التخلص من الأشباح التي تسكنه. وأمام جمال المدينة الأخاذ، سكن ألم الرحيل شيئاً فشيئاً. وبدأ يفكر أن الحب هو الذي يسترعي الاهتمام، وليست تلك المرأة.

منذ أن وطأت قدماه الأراضي السورية، تفتحت عيناه على مناظر لم يألفها، والتقى بأشخاص تربوا على معارف أخرى. خلال مسيرته، لم ير شيئاً من المناظر التي مر بها. لم تعن له المشاهد شيئاَ.

هنا، ينظر إلى كل شيء.

تصالح مع العالم، وبدل رغبته دون أن يرف له جفن. تعلم من جديد كيف يعيش وكيف يشعر وكيف يرى. كان الضوء المبهر في بعض الأحيان، يؤذي عينيه المتعبتين لكنه لا يثنيه عن تأمله. تعجز الكلمة عن وصف جمال اللحظة، والقوة المنبعثة من الأمكنة. لقد ألقى بنفسه في كون خالد، يغوص في جذور العالم.

جال في المدينة والطقس حار وخانق، مرتدياً لباساً شرقياً.

في المساء، كان يحدثني عن أمتع اللحظات التي عاشها خلال نهاره. كنت أرى مدينتي الأم من خلال عينيه، ويجعلني أكتشف أبنية أعرفها منذ الأزل.

ويكشف لي ما كنت قد نسيت أن أنظر إليه.

أحياناً، كان يتجول في المساء ما بين الأحجار ذات اللون الكامد والقبور الموجودة على جبل قاسيون، في اللحظة التي ما تزال فيها المدينة تسبح في ضوء ساطع، يأخذ بالتلاشي تدريجياً. كان يتشبع بالأصوات المختنقة المنبعثة من المآذن، بيد أنه كان يبحث عن ذاته وليس عن الله.

على المنحدر الصخري الذي يطل على المدينة شمالاً، رأى العالم بأوسع أبعاده. وأمام مشهد المدينة الممتد في الأسفل، شعر بأنه كامل، بشكل يتجاوز، دون شك، الأفكار والكلمات. يمكنه أن يموت هنا، أو أن يحيا أيضاً. بساتين فاكهة، مآذن، قباب، ومنازل من الصلصال ذي اللون الأحمر المزهر. على سفح جبل قاسيون، يرقد ابن عربي، وإلى جانبه مغارة النائمين السبعة، هؤلاء الشباب السبعة الذين اختبئوا هناك هرباً من التعذيب، واستفاقوا بعد ثلاثة قرون[١]. وقال له أحدهم، بأن مغارة الدم، التي قتل فيها قابيل أخاه هابيل موجودة هناك أيضاً. مثل مغارة

---

(1) سورة أهل الكهف في القرآن الكريم. (المترجمة).

آدم، أبي الإنسان. وباتجاه الأعلى، توجد درويشية الشهداء الأربعين، الذين قضوا جوعاً.

استراحة.

للحظة توقف ما كان يمزقه باستمرار، أمام روعة ما تراه عيناه. هل يمكن للجمال أن يشفي كل شيء؟

قال لي إن في مخيلته صورة لها كانت تجعله يتألم بشكل غريب وقد ظهرت فجأة وفرضت نفسها. وكالعادة، كانت ردة الفعل هي طردها، لحماية نفسه أو بالأحرى في محاولة لحماية نفسه. ولكن بخلاف كل مرة، كان في الصورة هنا شيء آخر غير الألم، كانت مشوبةً ببعض الخفة والفكاهة. في تلك اللحظة شيء ما في داخله تحرر منها.

مشى في قلب دمشق، متوجهاً في مسار يجعله يصل، كما كان يأمل، إلى سر تاريخ هذه المدينة. مزيج من القرون، ومزيج من المشاعر.

سافر إلى مكان آخر كي لا يلتقي بهذه المرأة ثانية على الإطلاق، لكي يكون خارج تاريخه الخاص. وأتخيل أنه سافر لأسباب أخرى أيضا، لأسباب مدفونة عميقاً جداً، لدرجة لا يستطيع البوح بها لأحد، ولا حتى لنفسه. هنا، هو غير معني سوى بتاريخ الإنسانية. وتمكن ثانية من ذرف الدموع، عند استنشاق رائحة ما، أو عند سماع صوت أو كلمة مؤثرة.

أحببت حضوره في المنزل، أصبح فرداَ من أفراد العائلة، استفدنا من ثقافته واطلع بدوره على دين الإسلام. كان يستطيع الوصول بطريقته إلى مكامن الغرابة الخاصة به وإلى الغريب الذي يسكنه. مما أفسح له مكاناً هنا، على أرض هذا المكان الآخر.

كنت أحدثه كثيراَ بشكل دائم، لكنني لم أكن أخبره بأشياء لا يعرفها أصلاً. كنت غالباً ما أراه يطرد الأشباح التي ما زالت تأتي وتغشي بصره.

أصبح الآن، عند العودة من جولاته، يستخدم جملاً أغنى وأطول، وكلمات أصح. كنت أحس بالمتعة التي كان يشعر بها عندما يتحدث باللغة العربية.

كان المنزل العائلي محمياً من ضجيج المدينة بجدران سميكة.

كان التباين بين مظهر واجهة المنزل البسيط والغنى الداخلي شديداَ، لدرجة أنه عندما دخل جان - باتيست هنا للمرة الأولى، واجتاز الممر الملتوي الذي يؤدي إلى باحة المنزل، حبس أنفاسه أمام جمال المكان والهدوء المخيم عليه.

خيط من الماء الرقراق، يتساقط في حوض البركة وسط صحن الدار. ويشكل الفناء الغرفة الرئيسية، قلب المسكن. في الصيف يختزن البرودة، وفي الشتاء يُسّهل تدفئة الغرف الشمالية. فسحة مكشوفة تحت السماء السورية، وممر إلزامي، قبل الولوج

إلى داخل أية غرفة أخرى. الأرض مبلطة بالرخام، والجدران مزينة، والنباتات ترمي ظلالها وترطب المكان خلال ساعات النهار الأكثر حراَ. ويُخفّف تبخر الماء من درجة الحرارة، ويختلط خريره بتغريد العصافير، مثلما تتحد رائحة الياسمين برائحة زهر العسل.

زهور، أشجار رمان وجميز ومشمش وبرتقال وليمون وصفصاف فارسي؛ ماء، وروائح ذكية، وضياء ونسمات هواء عليلة.

أما الليوان فهو امتداد الفناء، مثل قاعة استقبال ينقصها حائط، والسقوف مدعمة بعوارض خشبية مطلية بألوان باهتة بعض الشيء. زخارفه منمقة من الأرض وحتى السقف.

كنا نجلس بانسجام على الوسائد الحريرية، في المساء، وندخن النارجيلة، ويأتي خادم بصينية عليها قهوة وكأس ماء. ويعد الحلويات والمثلجات الملونة والمشمش والمربيات. كنا نستمتع بالحاضر وبقوة هذه اللحظات. ويخيم الليل فجأة.

لا أتخيل أنه من الممكن أن يشعر بالحسرة على حياته الماضية.

XII

كان يجول في المدينة كل يوم. يفتقد إلى شيء ما، بيد أنه شعر بتوجس من نوع آخر تجاه الهواء والضوضاء والأصوات والألوان. كل ذلك آت من مكان أبعد. تكيّف مع الشعور بالانقباض الذي بدأ يتركه مع الوقت. يكفيه أن يغمض عينيه، ويستنشق رائحة الورود والتوابل في السوق ويسمع صوت المدينة. قد يكمن الجمال في الضوء الذي يعم بألوان هدّأها غبار الصحراء.

يستحضر الشعراء دمشق وكأنها الفردوس على الأرض؛ يشبهونها بشامة على خد الدنيا، بهالة من ضوء القمر، بالزهرة القلب وسط باقة من الورود. ورويت له أن النبي محمد رفض الذهاب إليها، لأنه لا يريد دخول الجنة مرتين.

تحول مسير جان - باتيست إلى تجوال طويل في أزقة المدينة؛ يتوه فيها ويستولي عليه نوع من اللذة المجردة التي لم يعرفها حتى الآن. وراق له التسكع على غير هدى إلى ما لا نهاية، هناك حيث تنبعث الذاكرة من جديد؛ ففي بعض الأحيان، ودون توقع، تعود لحظة ما طواها النسيان؛

إن ماضيه الذي لم يمت هو ما جعل منه كائناً حياً.

تلاشت مخاوفه دون أن يشعر، لتفسح مكاناً للرغبة. ويبدو أن الرغبة أثارت في نفسه من جديد تساؤلاً بعيداً، منسياً.

وتدريجياً، حلّ الجمال الذي تقبّل رؤيته في هذا البلد محل ضياع الحب.

بُنيت المدينة القديمة على أنماط مختلفة، وبتأثيرات متعددة، وخلال أحقاب تاريخية متنوعة، مما زعزع كل ما كان متيقناَ منه.

لكنه لم يتخل عن كل شيء كليّاً؛ تمسك بلذته الحزينة، ولم يبقه على قيد الحياة سوى الانفصال. أجبر نفسه على الابتعاد، على الغياب، على الفراغ؛ هل بإمكانه التراجع؟

كنت الشاهد اليومي على الصراع الذي يعيشه بين الرفض والاستمتاع؛ ترسخ ألمه بانفصاله عن جذوره؛ حتى أن هناك لحظات بقي فيها هذا الألم على حاله، مثلما شعر به تماماً في اللحظة الأولى التي عرف خلالها بالخيانة. ألم لا ينضب، بقي محفوراَ في أعماق جسده وقلبه.

في الصباح الباكر، وقبل اشتداد الحر، يخرج جان - باتيست إلى الشوارع حيث يأتي الفلاحون لبيع بضائعهم من فاكهة وخضار وخس. وكذلك بائعو النخاع وأرغفة الخبز الطازج والرشاد.

وعلى ظهر الحمير، تتمايل الدجاجات السجينة في أقفاصها الشبكية. ويطلق بائعو وتجار السلع والثياب المستعملة الصيحات للفت الانتباه إليهم، وللإشادة بنوعية بضاعتهم. ويصرع صائدو الدبابير والزراقط هذه الحشرات أثناء طيرانها ويسحقونها بكعب حذائهم. بائعو الملبس والسكاكر، مياه محملة بأوعية مزركشة بقطع زجاجية تصدر رنيناً خاصاً، فضلاً عن أصوات قرقعة الكؤوس والضحك والصراخ.

ويأسف لعدم رؤية المزيد من النساء في الشوارع، ولحسن الحظ يركض الأولاد في كل مكان. الرجال في عجلة من أمرهم، يعتمرون الطربوش أو قبعة صغيرة بيضاء يضعون فوقها الكوفية.

أدرك جان - باتيست أن الزمن في دمشق يقاس بطريقة مختلفة، فالماضي والحاضر يعيشان جنبا إلى جنب. ويأخذك التطلع إلى التاريخ في رحلة داخل ذاكرة شديدة القدم. مدن تعاقبت، ومدن أخرى استقرت فوق بعضها. رجال أحبوا المدينة، آخرون استعمروها أو هدموها، نهبوها، أضرموا النار فيها، أو تخلوا عنها. بعضهم أضفى على جمالها مزيداً من الجمال. لقد اندحر الصليبيون على أسوارها، لكنهم أخذوا معهم الوردة الجورية، وردة دمشق.

الهواء مشبع بشيء ما غير ملموس، وجان - باتيست يسير مستحماً بالغبار وسط بحر متحرك من المارة الذين يحثون الخطى.

عمّ يبحث في هذه المدينة؟

لا يعرف، إذ لم يعد لما يحبه من اسم.

إنه يعيش تماماً على هامش الزمن، وعلى هامش حياته. في المدينة، ينفتح على عالم آخر، يلتقي بتاريخ الحضارات، كما يلتقي أيضاً بالتاريخ الخاص به. تعيده المقارنة إلى انقضاء الزمن، إلى الحياة والموت، إلى نقطة لا رجوع عنها، وتعيده إلى الحب دون أدنى شك.

شعر فعلاً هنا، وأكثر من أي مكان آخر، أن الوقت لا يرحم.

يرتفع صوت المؤذن خمس مرات في اليوم. خمس مرات في اليوم، تعبر البلاد الدعوة للصلاة التي تنطلق بتمهل وبصوت ضعيف ثم تصدح عالياً.

أعمدة منتصبة من أرض التاريخ العميقة، لم تعد تسند سوى نفسها؛ أجزاء من أقواس أو من معابد تستند عليها المنازل الطينية القديمة.

جذبه الجامع الكبير، المحظور على المسيحين دخوله. جذبه لأنه محظور ولكن، أيضاَ، لأنه رائع الجمال. بيد أن هذا الجامع الذي بني إحياء لذكرى النبي زكريا، والد القديس يوحنا المعمدان، بدا له مألوفاً بشكل غير عادي.

من مئذنة العروس ينطلق صوت المؤذن داعياً للصلاة. ويتردد صدى الآذان في المساجد المجاورة، مثل موجة تتلاطم ثم تتلاشى. وهناك من يؤكد أن تلاوة الصلاة لمرة واحدة في الجامع الأموي الكبير تساوي ثلاثين صلاة متلوَة في مكان آخر.

ويطول انتظار مئذنة عيسى، لترى السيد المسيح عائداَ إلى الأرض من جديد، يوم الدينونة الأخيرة، ليحارب المسيح الدجال. وقف جان - باتيست ساكناً، عيناه مسمرتان على البرج المرتفع، لكن السيد المسيح لم يظهر في ذلك اليوم. والمئذنة لا يحيط بها سوى المسار الذي اتخذته العصافير لطيرانها، في السماء الخالية والواسعة.

قال لي في الصباح: - منذ عدة ليال، وأنا أرى الحلم ذاته. رأسي المقطوع يتدحرج إلى ما لا نهاية تحت قدمي تلك المرأة المستحوذة على كياني، دون أن تراه.

الجروح ما زالت هنا، والكوابيس أيضا.

جمعنا الأجزاء التي نعرفها عن حياة القديس يوحنا المعمدان، «الإنسان الذي أرسله الله ليشهد للنور». هو الصوت الصارخ في البرية، هو الرجل الذي نزل إلى مياه نهر الأردن المُطهرة.

يوحنا المعمدان هو ابن اليصابات، قريبة مريم الناصرية وزكريا، الكاهن. كما أنه آخر أنبياء العهد القديم، النبي السابق للسيد المسيح.

عرف صديقي حياة ذلك القديس، على الأقل من وجهة نظر إنسان مسيحي. وأحب حياة السير في الصحراء دون هوادة، حياة النقاء والزهد.

أما هيروديا، فهي أبعد ما تكون عن حياة الزهد، حفيدة هيرودس الأكبر، وأم فتاة تدعى سالومي، أنجبتها من رجل ينتمي لوسط جد متواضع بالنسبة لها. متواضع لدرجة أنها قررت هجرانه لتتزوج من عم ابنتها، وشقيق زوجها: هيرودوس أنتيباس.

عندما علم يوحنا المعمدان بهذا الأمر، استشاط غضباً، لأنه اعتبر هذا الارتباط ارتباطاَ مشيناً وبصوته الذي أنهكته الريح وحرارة الصحراء والكلمات، لعن الرجل الصارم الخاطئة وندد بها. وفضح أخطاء المرأة الآثمة وكشف كذبها ورذائلها في كل مكان. فأودع السجن، لأنه عمل على منع الأفعال الدنيئة.

وبينما كان يصلي في سجنه، وصل الحفل الذي أقامه هيرودوس أنتيباس إلى ذروته؛ وسالومي ترقص لزوج أمها. بجسدها الغض، الرشيق، الشهواني، رقصت مثل شعلة تحترق على إيقاع الموسيقا.

شهوة ورغبة مجنونة، خمر وضجيج، وتجديف.

وعد هيرودس المفتون بسالومي، أن يلبي لها أية أمنية مهما كانت. التفتت نحو أمها، فهي لا تريد شيئاً لنفسها؛ ما يهمها فقط

هو سعادة هيروديا، التي جعلت من ابنتها لعبتها وضحيتها في آن معاً.

حرضت الأم ابنتها على طلب رأس يوحنا المعمدان، انتقاماً لها. وفى هيرودس أنتيباس بوعده، وتهاوى سيف الحارس على السجين. وحُمِل الرأس المقطوع، المنتفخ والمضرج بالدماء إلى سالومي على صينية ثقيلة.

فأرسلته للتو إلى أمها.

صمت وشعور بالغثيان.

ويُروى أن الأمير الأموي، الوليد، وجد في سرداب، صندوقاً يحتوي على رأس يوحنا المعمدان موضوعاً في سلة. ويوجد الآن، في قلب مركز الإشعاع الروحاني الدمشقي، ضريح يضم رأس هذا القديس.

هنا يدعونه النبي يحيى، وتتوجه إليه النساء خصوصاً، ويطلبن شفاعته في شؤون الإنجاب والمشكلات الزوجية. يُبرمن معه اتفاقات، ويعقدن شرائط من القماش على الشبك المحيط بمزاره.

لم ننبس أنا وجان - باتيست ببنت شفة. وتأملنا الحب في صمت مطبق. إن ما دعى إليه يوحنا المعمدان هو حب الله. ورغم ذلك ذبح. ضُحي به على مذبح الحب الأرضي، هذا الحب المزاجي، والمتطلب، والسريع الغضب.

XIII

اتسع أفق جان - باتيست، وبدا أنه ولد من جديد هنا.

كان النبي محمد يقول إن دمشق هي الجنة التي يجد فيها المسافر بعد اجتياز الصحراء ليس الراحة فقط، بل السعادة أيضاً.

دمشق هي مدينة النسيان، لم يصادفه فيها أي شيء من الأشياء التي أثقلت تاريخه الشخصي. إنها مكان للعبور من الموت إلى الحياة، من الجنون إلى السكينة.

أما الأماكن التي أحبها، فهي الشوارع والسوق الشرقي والمقاهي.

في دمشق مقاه لا تعد ولا تحصى، إنها تُشكل مثار فضول إضافي بالنسبة لجان - باتيست. في أيام الجمعة غالباً ما نلتقي فيها بأصدقائنا. تقام المقاهي على مساحات خضراء، وعلى ضفاف الجداول. نقصدها في المساء أيضا، عندما يخيم الليل، على الضوء الخفيف المنبعث من الفوانيس الملونة. نمضي بعضاً من الوقت، نتأرجح مع خرير المياه الجارية وتحيط بنا الأشجار والنباتات.

أطلعته على طقوس ارتشاف القهوة ببطء، كي يتذوق أريجها ويستلذ به. هذه القهوة مصنوعة من حبة البن ومن قشرتها أيضاً، ومعطرة بالهال والعنبر الخام.

ويتجاذب الرجال الجالسون على الأرائك المخملية الحمراء أطراف الحديث بتمهل، إذ تستحوذ النراجيل الطويلة على كل الاهتمام.

في هذا المساء جاء حكواتي وجلس على طاولة. لبس نظارته وتنحنح بحثاً عن الطبقة الصوتية المناسبة، تحسّس ذقنه الصغيرة، ونظر حوله وبدأ بالقراءة. دوى صوته قوياً وواثقاً. وتابعت أنظار زبائن المقهى شفتيه. وفي اللحظة التي تصل فيها القصة إلى قمة التشويق، أو يكون فيها الفضول على أشده، ونحن كلنا آذان صاغية، يغلق كتابه فجأة، ويعد بأنه سيحضر في اليوم التالي، ويمضي.

ما زال الكسل الذي يسيطر على جان - باتيست خلال ساعات الحر، يجرده من السلاح، في مواجهة أفكاره، إنما هنا أصبح غريباً عن كل ما هو مبتذل وقبيح وتافه. شفاه الجمال من جروحه كافة، لم يعد يريد أن يرى سوى الجمال. ومع ذلك، تعود النظرة التي دفنها في أعماقه كالبرق، في كل لحظة تآلف بحت.

أمن الممكن أن يتمنى، على غرار شاول الطرسوسي، أي القديس بولس، أن يفقد البصر، جراء حقيقة محبة ترميه خارج حياته الماضية.

في ذلك اليوم، بعد انقضاء ثلاث سنوات على موت السيد المسيح، بدا وكأن الغبار محمّل بالنور. كان شاول مسافراً على الطريق المؤدية من القدس إلى دمشق، كي يعيد هؤلاء الذين تأثروا كثيراً بالأفكار الجديدة الآتية من القدس، إلى جادة الصواب.

الوقت ظهراً على وجه التقريب، النار تنبعث من الأرض، والحرارة خانقة، الغبار المتطاير يحيط به، يغلّفه. فجأة سطع نور عظيم، أكثر ضياءاً من نور الشمس، أفقده البصر ورمى به من فوق الحصان. نور يفقد البصر لكنه يكشف الحقيقة. نور يخطف الأبصار بالحقيقة الجلية التي جاء يحاربها.

وبعنف، احتجب هذا النور بجسد السيد المسيح الممجد، وسمع صوته قائلاً:

- أنا يسوع الذي تضطهده. انهض وادخل المدينة، وسيقال لك ماذا عليك أن تفعل.

أتاه التحذير.

بقي فاقد البصر ثلاثة أيام، دون طعام أو شراب.

صعق رجال الحرس: سمعوا دون أن يروا شيئاً، وأدركوا دون أن يسمعوا شيئاً. أدخلوه دمشقَ ممسكين بيده، عيناه مفتوحتان، إنما خاويتان.

بعد أن ظهر السيد المسيح لتلميذه حنانيا في رؤيا، ذهب الأخير إلى شاول، ووضع يديه عليه، وقال له:

- الله قد أرسلني، إنه يسوع الذي ظهر لك على طريق المدينة.

سقطت الغشاوة عن عيني شاول، وغمرت قلبه نشوة الإيمان من أجل السيد المسيح. عاد بصره، كفيض من النور الغامر.

من مُضطهد، تحول إلى بولس الرسول، بعد أن دعاه يسوع المسيح. لقد وجد الهامه الرباني، وطريقه إلى دمشق.

واليوم أيضا لم يظهر شيء لجان - باتيست؛ والسماء كذلك بقيت خالية.

الكشف الديني أمر آخر.

يعرف الآن أن الحب مستحيل.

يعرف أنه لا يريد ملء الفراغ، إنما الاستمتاع به.

يعرف أيضا أنه لا يستطيع البقاء في دمشق إلى ما لا نهاية دون أن يعمل.

قرر الذهاب إلى حلب للقاء قريبه، ورؤية ما إذا كان بإمكانه الاستقرار هناك كطبيب.

لم يخطر على باله حتى أن يغادر من جديد نحو الغرب.

كلٌّ رحلة هي مغامرة، الطرقات رديئة التنظيم، والمصادفات السيئة واردة الحدوث.

نصحته، من أجل السفر إلى حلب، بالانضمام إلى قافلة تجار؛ إنها الطريقة الأكثر أمناً وتنظيماً.

توجهنا معاً إلى إحدى ضواحي دمشق، حيث تنتظم القوافل، وتملكني شعور بالحزن لفكرة رحيله.

أما هو فأحجم عن الكلام لشدة توتره.

ضمّني إلى صدره بسرعة وارتباك، كان حزيناً، وقال إنه سيعود.

تركته، شعرت أنني أتخلى عنه، وشعرت أنه يتخلى عني.

الجزء الثالث

حلب

قوافل؛ بدو، حلب، القلعة، أسواق، طرقات، جمال، حمير، رزم، بضائع، سير، مخاطر، تعب، عاصفة، نهر العاصي، طرقات، أبراهام، قنصلية، تجار، حمام زاجل، خانات، «المدينة»[١]، صابون، بيمارستان أرغون، مآذن، جامع، مقهى، حمام، خيوط مقصبة بالذهب، بالفضة، لؤلؤ، أحجار، أقمشة، سكر، خزف صيني، زجاج، توتياء، حرير، حب النيل، نبات الراوند[٢]، زنجفر[٣]، نحاس، صفيح، فلفل، جوخ، صوف، بلسم، قطن، خشب البرازيل، عاج، صمغ، جوزة الطيب، مسك، قرفة، شجر الهلج[٤]، جوزة العفص[٥]،

---

(1) وردت في النص بلفظ عربي وأحرف لاتينية.

(٢) نبتة طبية عشبية جذمورية معمرة من فصيلة البطبطيات.

(٣) كلمة فارسية تعني كبريت الزئبق الأحمر الطبيعي.

(٤) شجر شائك.

(٥) نوع من أشجار البلوط، منتشر في لبنان وسوريا والمناطق المجاورة.

نبتة المنيا(١)، قسط(٢)، بخور، صمغ، مرجان، كتان، نيلة(٣)، نبات الفوة(٤)، هال، لبان، خشب الصندل، أزرار القرنفل، صمغ اللك(٥)، زنجبيل، كافور، بهار القرنجال، عنبر، المدينة القديمة، نبات الصبر، حشرة القرمز(٦)، شبة(٧)، مرجان، قسط(٨)، قثاء هندية، باب أنطاكية، خان الجمرك، العثمانيون، الباشا، الفرنجة، جماعات، مدينة، محلات، متاهات، باب قنسرين، تجار، أزقة، قويق، صلاح الدين.

---

(١) تعذر العثور على معنى هذه الكلمة في أي مصدر من المصادر المتوفرة، وبعد سؤال الكاتبة تبين أنه نبات أبيض اللون من فصيلة الشفويات، يزرع في البيرو، وله فوائد هضمية.

(٢) عود يستخدم في المداواة.

(٣) مادة تعطي اللون الأزرق المائل إلى البنفسجي، تستخرج من شجرة النيلة.

(٤) نبات من فصيلة الفويات له ساق غليظة ومشعبة.

(٥) اللك هو عصارة راتنجية صمغية حمراء تفرزها بعض الأشجار وتصبغ بها الجلود وغيرها.

(٦) جنس حشرات من رتبة نصفيات الأجنحة وفصيلة القرمزيات، كانت تستعمل قديماً في الصباغ.

(٧) ملح معدني قابض يساعد في تثبيت الأصبغة.

(٨) نوع من النبات، ثمره يشبه الخيار. (المترجمة).

XIV

كان جان - باتيست يشعر بوهن دائم، فلم يحاول الاختلاط بمجموعة التجار، إنما حاول فقط البقاء على مسافة مناسبة منهم. هم لا يجولون في الطرقات كما فعل هو، لأن لديهم هدفاً محدداً؛ تجمعوا ليواجهوا الصحراء والمخاطر. أخفى نفسه عن أعين الآخرين، عمل على أن يكون متحفظاً قدر ما استطاع، وشفافاً أكثر ما يمكن.

امتدت القافلة على مسافة طويلة من الطريق.

حُمّلت الحيوانات بتثاقل؛ ورُصت الرزم والبضائع وأدوات الطبخ على جنبات الحيوانات. وقام حمار بمهمة الدليل. ساروا بصعوبة، وكل واحد يشغل المكان المخصص له.

طريق وعرة.

الوقت يتثاقل، يتباطأ، لا يمضي. طال الصيف، الطقس حار، ما من نسمة هواء، ولا شيء يستوقف النظر.

بعد كل ما عاناه جان - باتيست، للوصول إلى هذا البلد بالتحديد، فإنه لا يدري كيف يصل إلى نهاية هذه الرحلة باتجاه حلب؛ بدت له رحلة أزلية.

الغوطة، منحدرات القلمون القاحلة، أولى ركائز جبل لبنان، خان العروس، صيدنايا(١)، يبرود، معلولا، حمص، حماة، أفاميا، حلب...

طريق صحراوية، رتيبة، لا نهاية لها، دون أية نقطة علام. الأفق لا حدود له، مثل أفق البحر؛ يمتزج خطه في ارتعاشة تجمع ما بين السماء الدافئة والصحراء؛ والشمس تأبى الغروب.

تتقدم القافلة ببطء وملل؛ فهي تسير بحركة متكررة إلى ما لا نهاية، في أيام متشابهة، ذات طقوس لا تتغير. الرمل والغبار ينهكان الخُطا. يستسلم المرء أمام انعدام أسباب الراحة، ويختزل العالم بأسره إلى ما هو ضروري فقط.

تعب جسدي وتعب نفسي.

وهذا ليس كل شيء.

فالاضطرابات التي سببها اللصوص، جعلت التنقل محفوفاً بالمخاطر. قصص تنتشر، وحكايات عن غزوات البدو، وهجمات قطاع الطرق.

اجتازوا القرى الرازحة تحت حرارة الشمس والتي تبدو جزءاً من الأرض الرملية الصفراء القاحلة. هل رأى هؤلاء الذين اجتازوا هذا البلد، منذ عدة قرون، شيئاً آخر؟

---

(١) وردت في النص «سيدوايا». (المترجمة).

تذمرت الجمال المربوطة طيلة الليل، ونبحت الكلاب في كل لحظة استسلم فيها للنوم. استقرت إحدى صورها كحاجز يحول بينه وبين أي شيء آخر، حضورها ما زال يسكنه ويترسخ في كيانه. وخرج من سباته بفضل الجمال الصافي الذي يحيط به، وشفافية بياض ضوء الفجر المائل إلى الزرقة. إنها اللحظة التي يكون فيها أقرب ما يمكن من ذاته.

أحب ضوضاء القافلة الخافت خلال ساعات القيظ، ووقع حوافر الحيوانات البطيئة على الطريق، والإيقاع المنتظم للجمال، وكذلك الشمس التي تغمر الأرض بلون شاحب. إنه الخدر.

كان هناك امرأة غربية مسافرة في القافلة.

جميلة، في غاية الجمال، ذات حسن دون درجة الكمال، يبعث الخوف في قلوب الرجال. إنها أرملة، ذاهبة لموافاة عمها الذي يعيش في إحدى خانات حلب. خبأت شعرها الطويل بقطعة قماش كبيرة سوداء اللون، على غرار نساء المنطقة. لم تكن تتحدث إلى أحد، اللهم سوى الرجل الذي يقوم على خدمتها وحمايتها، والترجمة لها على قدر استطاعته.

إن القافلة تخلق مجتمعاً مؤقتاً، فبالرغم من الاختلافات في المجموعة ذاتها، فهم عبارة عن رتل من الرجال والحيوانات، أعضاء في وحدة منفردة، متنقلة.

الكل ينتظر فترة المساء، فترة الصلاة، بعد مسيرة اليوم بطوله. الطريق شاقة، وفي بعض الأحيان خطرة. أما التوقف فيعني أن وقت التأمل قد أزف، ويقاس خلاله الطريق التي اجتازتها القافلة. في هذا المكان يرتاح الركاب، يلتقون بعضهم بعضاً، ويتبادلون الأحاديث. تنشط حركة المطابخ المقامة في الهواء الطلق. ويستطيع المرء النظر إلى الآخر والتحدث إليه، كما يتمكن من تأمل أعماقه.

بدا أن الغريبة تبحث عن حضور جان - باتيست. لم يتبادلا الحديث نهائياً، إنما في بعض الأحيان، كانت تنظر في عينيه مباشرة.

- قالت له في يوم من الأيام: اسمي ماري.

لم يجب.

أصبح لقاء الآخر، بالنسبة له محنة، مصدراً ممكناً للخطر، وللألم. أراد أن يكون سيد نفسه، صافي الذهن، منيعاً على عالم المشاعر.

ويصدف أن تتوقف القافلة عند المساء، حينما تتمكن من ذلك، في إحدى الخانات التي صمدت في وجه الزمن. وتستخدم هذه الأماكن، التي بنيت بهدف حماية المسافرين وممتلكاتهم من القتل أو السرقة، كنُزل على طول الطريق التجارية. إنه تقليد إسلامي، يجد فيه المسلم ما يساعده على الوضوء، كما يجد اتجاه مكة

الذي تحدده القبلة. صُمم الخان أيضا لتوفير أسباب الراحة لهؤلاء الذين يجتازون الطرقات.

ترتاح الحيوانات، وكذلك الرجال، الكل يأكل ويستعد لاستئناف المسير.

الجدران متينة، يدخل النزيل من باب واحد فقط، ويجد إسطبلات ومحلات وحمامات وأروقة وغرف ومهاجع وغرف مشتركة ومخازن ودكان بيطار للعناية بالدواب ومؤن.

في الباحة قرب المسجد ونبع الماء، يتناقش التجار ويعقدون صفقات تجارية. يلتقون للمرة الأولى، أو يعاودون اللقاء، يتبادلون أخبار المناطق التي أتوا منها، والأشخاص الذين يعرفونهم.

وتدور الأحاديث عن الحرائر والعطور والمنتجات الثمينة.

وينهمك الحرفيون في ورشاتهم، لإصلاح المواد التالفة.

أحب جان - باتيست الجو المتنوع في الخان، الذي يأوي، مؤقتاً، رجالاً وحيوانات وبضائع من كافة المصادر.

XV

الطريق شاقة، جافة، والحيوانات تنوء تحت ثقل الأمتعة. هل تغير المشهد منذ بداية تاريخ الإنسانية؟ بدا الزمن وكأنه معلقاَ.

كان نهر العاصي أهدأ على طول المسافة الواقعة ما بين حمص وحتى مخرج سهل الغاب. تقدمت القافلة ببطء ووصلت إلى حماة في نهاية النهار، عند حلول المساء.

توقف المسافرون على ضفة نهر العاصي. واتخذوا مقراً لهم عند مدخل المدينة، حيث يتمركز بمحاذاة النهر، العديد من هذه الأبنية الخشبية الغريبة، التي تسمى النواعير، وتحمل عجلاتها الضيقة الماء عالياً في السماء في آوان معدنية، دون كلل أو ملل، وتصبه في قنطرة مائية؛ وهكذا تزود المدينة وبساتين الفاكهة والحقول بالماء ليلاً نهاراَ. وتتبارى النغمات البطيئة الصادرة عن الدواليب التي يحركها التيار، مع صراخ العصافير؛ جو مخيف بعض الشيء.

بدأت الغيوم السوداء تتكاثف في الأفق.

تفحص جميع المسافرين السماء، وانتشروا منهمكين في البحث عن مأوى. أقبل الليل، وبدأ نور البدر يضيء المجموعة. كان جمال ماري الغريب متناقضاً مع مظهر التجار الصارم.

تقاربت الغيوم وتجمعت واكفهرت. وتحولت زرقة الليل، إلى اللون الرمادي.

ما زالت الحرارة أشد من ذي قبل، الهواء يرتجف ثم يعصف؛ إنها اختلاجات السماء.

في لحظات الخوف، بحثت ماري عن حضور جان - باتيست المتواري عن الأنظار. انجذبت إلى هذا الرجل الذي لا ينظر لأي كان والذي انفصل عن جذوره، مثلها.

تجنب، منذ لحظة المغادرة، أي تقارب يخشى منه، أو قد يرغب به. إنها تتوجه نحو أرض نائية يحملها في داخله.

شعرت ماري باقتراب وقوع العاصفة، كانت في غاية الإنهاك. أحست بخوف وبهلع شديد. وصلت إلى عالم لا تعرف عنه شيئاً، أرادت أن ترتبط بهذا الرجل، أرادت منه أن يحميها. إنها في عنفوان شبابها، وتشعر بوحدة بالغة، بألم بالغ، بتعب بالغ، وبحزن بالغ.

هبت العاصفة واشتدت؛ وتحركت الغيوم السوداء الكثيفة، تدفعها ريح مباغتة. وبسبب سوء الأحوال الجوية، تحول صوت

النواعير، الذي كان عند الوصول أنين موسيقي عذب، إلى صرير حزين.

وجدت ماري ملجأ لها لدى امرأة عجوز تسكن في منزل مجاور لناعورة ضخمة. انشغلت طيلة الليل بالأصوات المقلقة للحركة المرافقة لقصف الرعد. بدا كل شيء يتسلل إلى رأسها، وإلى كامل جسمها.

هطلت الأمطار كالطوفان، أصيبت الحيوانات بالذعر، وتلون العاصي بلون الحبر. فكر جان - باتيست بالأرض التي رأى فيها النور، فكر بالموت.

اصطكت النواعير، مصدرة ترددات حزينة.

لم يغمض لأحد جفن في تلك الليلة.

توقف هطول الأمطار، ولم يتمكن النهار من الإشراق.

التقت ماري بجان - باتيست على ضفة المياه، جلسا بصمت أحدهما إلى جانب الآخر.

كانت يداهما قريبتين إلى حد التلامس، لكن ذلك لم يحدث. بقيا لوقت طويل مسمرين وصامتين.

بزغ أخيراً ضوء شاحب.

وجدهما التجار جنباً إلى جنب، غريبيّن.

تلكأت جُمَلُ المؤذن في ذلك الصباح، فأتت طويلة حزينة. عادت حرارة الطقس ثانية.

واجه جان - باتيست نظرات الشك في عيون رفاقه في الرحلة.

والأيام التي تلت كانت أيام سفر.

XVI

بعد رتابة الطريق، ومساحات الأراضي الشاسعة، السمراء الضاربة إلى الحمرة، والحجارة الرمادية، كانت القلعة هي أول ما برز في وجه جان - باتيست. وبعدها أتت العصافير المحلقة ما بين المآذن والقباب المائلة إلى البياض.

عرفت حلب العثمانية كل الأزمان وكل الحضارات. انبثقت في قلب برار شحيحة المياه، ممتدة من نهر العاصي إلى نهر الفرات. إنها المعبر الإلزامي لكافة الطرقات واللقاءات والتبادلات، وللثقافة وللتجارة، إنها ممر لكل هؤلاء القادمين من الغرب إلى الشرق. لقد بنيت في نقطة التقاء العالم الغربي المتوسطي والعالم الشرق أوسطي الإسلامي.

حلب هي مرفأ دون بحر. إلى هنا وصل جان - باتيست بعد طول مسير. تسلق الجبال، وسار بمحاذاة الوهاد، عبر الصحارى، عانى من المرض، أصبح على قاب قوسين أو أدنى من الجنون، أنهكته المحن، وتركت الريح والشمس آثارهما على بشرته.

شوارع مغبرّة، حجارة بيضاء اللون، خرساء، أناس تنظر إليه.

المؤذن.

الحياة هنا تدور حول القلعة. وحياة جان - باتيست تتمحور حول غياب، سعى جاهداً، منذ عدة أشهر، للحفاظ عليه.

منازل عشوائية، غبار أبيض، حجارة ذات ألوان رصينة، جوامع، حمامات، بساطة، قباب، مزاريب، حلب.

اسكتشف المدينة، رائحتها، لونها، ضجيجها، غبارها.

حجارة كلسية، صفراء وبيضاء.

دخل جان - باتيست إلى السوق، من باب أنطاكية. لم تألف عيناه بسهولة الجو المظلم المجرد من الألوان، بعد ذلك النور المبهر الذي ملأهما. لم يعرف كيف يجد طريقه، الممرات مزدحمة، النشاط في أوجه، الحمير محملة بكل شيء. ويرسم الضوء المنصب من فتحات السقف المقبب، أشكال الغبار السميك، المتكاثف. شعر أنه يدخل إلى عالم خاص لا يشبه شيئا مما يعرفه، أو من الممكن أن يكون قد سبق ورآه؛ حتى أسواق دمشق.

وشعر لأول مرة، رغم أنه قادم من مكان بعيد جداً، بغربة تامة.

استيقظت حواسه كافة، وتهيجت.

متاهة، صرخات سائقي الحمير والبغال الأجشة، صيحات البائعين، مئات الدكاكين المتناهية في الصغر، بسطات تغص

بالبضائع، طرقات معبدة ومأهولة، كميات هائلة من الأغراض الفريدة من نوعها، روائح البهارات، والصابون، ألعاب ضوئية.

فوحات عطور مختلفة وقوية.

التصق جان - باتيست بحائط مطلي باللون الأخضر، هرباً من عربة محملة بالفاكهة. إنه أحد جدران الجامع الكبير؛ خلفه يقع قبر زكريا.

- سأل بلهجة دمشقية: أين يقع خان الجمرك؟

جاءته التفسيرات معقدة.

تتوالى الأزقة وتتلاقى وتتقاطع وتتشابك.

ومن ثم، دفقة نور: أنه مدخل الخان.

XVII

وبارتباك ابتسم جان - باتيست، المسمر والتائه، لابن عمه هذا الذي لا يعرف عنه سوى اسمه: فرانسوا.

احتضنه هذا الأخير، مرحبا به، وقال له: أهلاً وسهلاً(١).

كان فرنسوا بديناً بعض الشيء، طلق اللسان، وجهه يتصبب عرقاً من حرارة الخان، وبعض القطرات تسيل على عنقه وقميصه. شعره خفيف جداً ولونه أشقر، ملامح وجهه ناعمة، وتبدو طفولية بعض الشيء. قدّم ابن عمه الأجنبي هذا إلى الجميع بصيحات عالية، معرفاً إياه على المكان.

شعر جان - باتيست بالخوف، لأنه اعتاد على الوحدة. اجتاز طريقاً طويلاً، وعوّدته دمشق من جديد، وبشكل تدريجي، على الآخرين، لكن كل شيء في داخله ما يزال هشاً.

المكان يضج بالحركة، الناس يتحركون ذهاباً وإياباً في الباحة، وسط الرزم المكدسة، والعلب، والأكياس وحزم الأقمشة، أمتعة المسافرين، القادمين أو المغادرين. سبيل ماء مجاور

---

(١) وردت في النص بلفظ عربي وأحرف لاتينية.

شرقي الطراز، عليه ميزان حديدي ضخم، مزود بكفات وخطافات، توزن بواسطته البضائع وتُسعّر.

إن خان الجمرك هو الدائرة المسؤولة عن تحصيل الرسوم على البضائع المستوردة أو المصدرة. أخبره فرانسوا بأن الفرنسيين والهولنديين والإنكليز قد أقاموا به حتى نهاية القرن السابع عشر، لكن تزايد عددهم، أجبرهم على الانفصال. حالياً يسكن كل واحد في الخان المخصص له، ويعيشون حياة مستقلة وجماعية، على هامش الحياة التي يعيشها العثمانيون.

استمر فرنسوا في إعطاء المزيد من التفسيرات لجان - بابتسيت الذي بدا تائهاً. أخبره أنه منذ عشرات وعشرات السنين تستثمر وكالات الشركات التي أقامتها الدول الأجنبية في سورية وفلسطين تجارة هامة جداً. كل واحد منها له اختصاصه؛ تستقبل وكالة حلب ومرفأها اسكندرونة، الأوروبيين الذين أتوا لشراء المنتجات الأكثر غرابة القادمة من الهند وبلاد فارس والشرق الأقصى. اختصت حلب، في جملة اختصاصاتها، بالمنتجات النسيجية ذات الجودة العالية، أو الفاخرة. يعمل الكثير من الحرفيين على تصميم أقمشة من الحرير المقصب بخيوط ذهبية وفضية. والبعض الآخر يصنع الشرائط، والقياطن[١]، والمطرزات، والأطالس[٢]، أقمشة صوفية، سجاجيد، لباد...

---

(١) ما ينسج من الحرير وغيره شبه الحبال.

(٢) أثواب منسوجة من الحرير. (المترجمة)

التمعت عينا فرانسوا وهو يصف كيف تعبر القوافل الصحراء، وتقطع مسافات شاسعة وتتحدى المخاطر كي تحمل من أصفهان وبغداد وبصرى البضائع النادرة والثمينة: الحرائر والسجاجيد، الأقمشة والأوبار وجلود الماعز والخلاصات العطرية والعطور والعقاقير وأرياش النعام.

قال إن بعض القوافل تتألف من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ جملا، لكن أكبرها يمكن أن يصل إلى ١٦٠٠ جملاً.

يحيط بباحة الخان الواسعة مخازنٌ ودكاكينٌ. وأشار فرانسوا إلى شقق البائعين الموجودة في الأعلى. في وجهه شيء أنثوي يبعث على الطمأنينة؛ لم يتوقف عن الحركة، وبطريقة لا تخلو من الجاذبية؛ لكن ما يلفت النظر إليه قبل كل شيء، هو حماسه.

رحل بعض أفراد عائلة جان - باتيست، لأجيال خلت، للاستقرار في بعض مدن الشرق، مثل حلب وبيروت والقاهرة واسطنبول.

لكن لو أرادت إحدى المؤسسات التجارية استيراد بضائع من الشرق، وتصدير منتجات أوروبية إلى الإمبراطورية العثمانية، فالمكان الأمثل هو حلب. فهناك كانت تحاك خيوط العلاقات التجارية العثمانية الداخلية والخارجية.

وبفضل نظام الامتيازات الأجنبية، يعامل الرعايا الأجانب، تماماّ، معاملة المغتربين الذين يعيشون خارج حدود دولتهم.

فالمسؤول عنهم قانونياً هو قنصل بلادهم حصراً. وتمّ توقيع أول معاهدة في عام ١٥٣٦ بين فرانسوا الأول وسليمان العظيم، وتلتها معاهدات أخرى عديدة. وهي تسمح للدبلوماسيين الفرنسيين بالدرجة الأولى، بإقامة دائمة على أراضي الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم الجنسيات الأخرى.

وبقرار من الباب العالي، ولأسباب تتعلق بضبط الأمن والتفتيش، توجب على الأوروبيين أن يعيشوا في خانات، مجتمعين في مستعمرات خاصة، يحرسها بواب يراقب الدخول إليها لحساب السلطات.

يمثّل السفير المُعّين في اسطنبول، وكذلك القناصل في جميع المدن الكبرى، رعاياهم لدى السلطان والإدارة التركية.

ابتسم فرنسوا وقال لجان - باتيست: إذا تورطت في حادث ما، فستكون علاقتك مع قنصل فرنسا وليس مع السلطة العثمانية المحلية. وحدثه عن آلية عمل الجهاز القنصلي المدهشة، وكيف يضغط على السلطة العثمانية هنا، كي تنصاع لما يريد. ويتابع فرنسوا قائلاً بأن هناك كثيراً من القصص، والنزاعات التي تكون بشكل عام طائفية، لكن، بالإجمال، يقدر كل من القناصل والولاة قوة الآخر ويتوصلون بالتالي إلى تسويات متبادلة.

أما جان - باتيست، بالذات، فيأمل ألا يكون له علاقة بأحد أبداً.

- شرح له فرنسوا قائلاً: سترى كل شيء هنا يتم في «المدينة»، إنها قلب البلد، هنا يتركز أساس النشاطات التجارية، هنا مملكة الدكاكين.

تباحث فرنسوا مطولاً باللغة الإيطالية مع أحد زملائه، ووجد لابن عمه غرفة صغيرة في نزل يقع في مبنى خان النحاسين ذاته، أي الخان الذي يقيم فيه صانعو النحاس وبائعوه، إنها قنصلية فينيسيا القديمة.

غرفة واحدة فقط، متوضعة فوق الأسواق.

وضع جان - باتيست حقيبته على الأرض، كان منهكاً وضجراً من هذا الكم من المعلومات.

لم تكن غرفته مريحة بالقدر الكافي، لكنها تطل على شرفة، يستطيع من خلالها أن يتأمل منظر القباب والمآذن من كل جهة، وعلى مد البصر.

أقبل المساء، وتوهجت السماء، وحزنه لا يوصف.

ما زال طيف وجه المرأة التي يظن أنّه يحبها حتى الآن، يسكن مقلتيه. نظر ثاقب، وسلطان صوت المؤذنين المنبعث من العديد من المساجد المجاورة. دعوة للرغبة واستدعاء لها. تطلع، إصغاء.

ويتساءل مرة أخرى، لماذا لا يستطيع مشاركتها الشعور بالقوة الوحشية للجمال المنبثق من المدينة. أغمض عينيه، وعادت الصورة من أعماق الغياب.

وتتوالى الأمسيات وتمضي على هذا الغياب.

XVIII

ما إن وجد جان - باتيست الوقت ليخرج من أفكاره، حتى اصطحبه فرانسوا إلى الحمام. بدا له من الطبيعي أن يُعرّف جان - باتيست على أسرار المدينة في وقت الاستحمام، بغية طرد النجاسة. يقع حمام النحاسين في قلب مركز السوق وهو أحد أقدم حمامات حلب، وكان يستخدمه صانعو النحاس وبائعوه.

- قال فرنسوا الذي يتكلم كثيراً وبسرعة: بُني في عهد الأيوبيين، في القرن الثالث عشر. حاول أن ينقل حماسه لابن عمه المتجهم هذا، القادم من مكان بعيد جداً والذي يكاد يعرفه. ستلتقي هنا بالزبائن المسلمين المعتادين، ولكن أيضا ستلتقي بمسافرين وبتجار السوق. في الإسلام، تقليد الحمام تقليد أساسي في الحياة، لأسباب دينية بالطبع، ولكن أيضاً من أجل الصحة والاستجمام والإلفة الاجتماعية.

وأضاف فرنسوا قائلا:

- إنه ترف مفيد وفعال ويمنح القوة في مواجهة متاعب السفر. تمنى أن يتواصل، بشكل خاص، مع هذا المسافر بالتحديد.

استقبلهم «المعلم»[1]، أي المسؤول عن الإدارة، بعبارات المجاملة المعهودة التي أثلجت صدر الغربي، جان - باتيست.

- السلام عليكم، وأهلاً وسهلاً بكم، أرجو أن تتكرموا وتشرفوني بالجلوس على هذا المقعد.

نادى رجلاً طاعناً في السن، وطلب منه الاهتمام بالقادمين، والبقاء تحت تصرفهم، إذا احتاجوا لأي شيء مهما كان.

قدّم الرجل ثلاث مناشف لكل شخص. واحدة ليلف بها ثيابه، والثانية ليعقدها على خصره، والثالثة ليضعها على كتفيه.

المراحل محددة وطقسية ومتدرّجة.

خلع ابنا العم ثيابهما في الغرفة الأولى.

الأمكنة متنوعة؛ يعوّدهم الممر تدريجياً على درجة حرارة تزداد سخونة ورطوبة شيئاً فشيئاً، ثم يأخذهم إلى سلسلة من الغرف. لم يعد أمامهم سوى الاستسلام. الجدران سميكة لا يوجد نوافذ ولا تهوية.

القاعة الثانية مُدّفأة، إنما فاترة، وتخفف قبتها المثقبّة بفتحات من الزجاج السميك والمعتم، من دخول الضوء. جو ضبابي وملبَّد.

---

(١) وردت في النص بلفظ عربي وأحرف لاتينية. (المترجمة).

أما القاعة الثالثة فجوها شبه خانق، ومشبعة بالرطوبة. اختنق جان - باتيست وأخذ يسعل.

إنه الأتون.

الحرارة جهنمية، مقاعد، تكاثف في الحرارة، بلاط من الحجارة المصقولة، رخام ملون، جو ضبابي، حار.

في الحمام يعود المرء إلى الخمول والرطوبة، إلى شيء ما مثل الجسد الأمومي.

بدا الضوء المخفف بالبخار وكأنه غير واقعي، يبعث على قلق مبهم. يتردد صوت الضجيج مهما كان منخفضاً. تعرّق وشعر أن قذارة جسده كلها ترشح منه.

يقوم على خدمة الحمام موظفون مؤهلون مختصون ومدلكون وحساسون وحلاقون.

قام رجل مفتول العضلات، ضنين الحركات والكلمات، بتنظيف جان - باتيست بصابون الغار. فركه بقوة، رشه بالماء الساخن ثم البارد، دلكه، قلبه، نقض[١] له مفاصله، شدها وضغط عليها. جعله يقف ثم يجلس. أُدير، قُلِب، فُرك، غُسِل، حُلِقت ذقنه أخيراً. تحول جسده إلى شيء بين يدي أولئك الذين تولوا أمره. شعر بالراحة، انتابته أحاسيس نسيها منذ أمد طويل، استرخى، أو

(١) نقض المفصل: جعله يصدر صوتاً.

بالأحرى قبل أن يسترخي. لم تكن التجربة خارجية فقط، بل كانت داخلية أيضاً. استجمع أشلاء نفسه، وتخلص من مزاجه السيء.

قفازات من الليف، فسقيات[١]، قصعات نحاسية. هدوء، تراجع، عودة إلى الذات، شهوة.

هذه هي المرة الأولى التي يقبل بها جان - باتيست بالاستسلام، فيترك الأمور تجري على عواهنها، ويتذكّر جسده بطريقة تختلف عن علاقة القوة التي كانت تربطه به.

مضى وقت طويل.

ألا تؤدي طهارة الجسد إلى طهارة النفس؟

انتشر الضباب في كل مكان، حتى في أفكاره. كل شيء تلاشي، حتى الاختلافات، وحتى ما يسبب الألم. لم يعد الآخرون سوى أشباح.

الغرفة الوحيدة الخالية من البخار هي غرفة الاستراحة، وهي غرفة فسيحة ومضاءة بشكل أفضل. هنا مكان الكسل والنقاش والتأمل على مصاطب مريحة، هنا يهدأ ضجيج الناس.

وفي نهاية المطاف تحدث فرانسوا عن حلب، تحدث عن الأمكنة، الناس، الأعراف، العادات، وباء الطاعون الذي ظهر

---

(١) الفسقية: حوض رخامي في وسطه نافورة. (المترجمة).

مجدداً في عام ١٨١٤، وانتهى أخيراً، إنما خلّف وراءه ثمانية آلاف ضحية.

تعارف الرجلان بينما كانا جالسين باسترخاء، تحيط بهما مناشف ناعمة، والنرجيلة والقهوة في متناول يديهما.

علم أن والدي جان - باتيست توفيا، ولا شيء يمكن أن يبقيه في فرنسا بعد الآن.

طرح أسئلة أخرى على جان - باتيست.

بالكاد رد عليه.

ويستمر في داخله الصراع الذي يعيشه، بين الرغبة تجاهها والزهد بها.

لم يعد يدري ماذا يفعل بكل هذه الكلمات التي لا ينطق بها والجمل التي لا يلفظها والانفعالات التي يكبتها.

XXIX

قنصل إنكلترة، رجل قصير القامة، نحيف وهزيل، له أنف طويل جداً، وشفاه دقيقة. تعلو قسمات وجهه علامات الإفراط في الملذات وفي تناول الطعام الفاخر، وعلامات المحن أيضاً. الجميع هنا يتكلمون الفرنسية والانكليزية والإيطالية بمقدار يكفي للتفاهم فيما بينهم. أما هؤلاء الذين يعيشون هنا منذ وقت طويل، يتكلمون مزيجاً غريباً: يسمونه «اللغة المشتركة»(١). وبالنسبة للقنصل فهو يتكلم العربية والتركية والفارسية.

وبمناسبة دعوة على العشاء في منزل القنصل، ارتدى جان - باتيست قميصاً واسعاً طحيني اللون، وسروالاً منفوخاً، يشده زنار أسود عند الخصر؛ لقد قرر الاستقرار في المدينة، بصفته طبيب.

المأدبة فاخرة، الخدمة ممتازة والصلصة شهية على نحو غير متوقع، واللحوم لذيذة الطعم. نسي جان - باتيست طعم هذه الأصناف. وُضعت الأطباق على شرشف حريري أبيض اللون،

---

(١) لغة تختلط فيها العربية والفرنسية والإيطالية، كانت تستخدم في موانئ البحر الأبيض المتوسط. (المترجمة).

مطرز بخيوط ذهبية، والفوط مكوية ومطوية. وصُب النبيذ الأحمر الطيب في كؤوس ودوارق مصنوعة من الكريستال البوهيمي.

ها هو الكائن الذي هرب من وجوده، يُعاود السقوط فجأة في خضم حياته الماضية. ورغم أنه لم يقع في الجوانب الأسوأ منها، لكنه شعر بالحاجة لأن يكون في مكان آخر.

تناولت الأحاديث التي دارت حول مائدة الطعام، النزهات في الهواء الطلق، الصيد، الفروسية، الاستقبالات، الموسيقى، والسهرات الراقصة.

عاشت أرستقراطية الخانات هذه في وسط مستقل، وتعلقت بأسلوب حياة خاص بها. كان يجب القبول بالألعاب الاجتماعية التي تمليها الأصول والعادات، كما على المرء أن يُظهر نفسه ويتكلم. لم يعد جان - باتيست يستطيع ذلك، لم يعد بإمكان هذه الحياة أن ترضيه؛ فقد انقطع عن العالم منذ أمد طويل.

لم يجتز هذا الكم من الحدود، كي يحبس نفسه من جديد في وسط اجتماعي، ويجد نفسه ثانية أمام الأعراف المتبعة في عالم يريد نسيانه. في الخانات بالتحديد، يمكن للمرء في بعض الأحيان أن ينسى أنه في الشرق. لا يريد أن يبني في هذه البلد، «ديكوراَ» مصطنعاً من الحنين لمكان آخر. حمل في أعماقه ما يكفي من الحزن. ومع ذلك، فإنه يحب أن يهتم بهذا المجتمع، يتحدث بلهجته، ويتبع عاداته. لكنه لا يريد، بعد الآن، أية روابط

مع ذلك المكان الآخر الذي اجتث ذاته منه. ففي قلب الفجوة التي سببتها القطيعة تخلى عن كل شيء، أضاع كل شيء، وتنازل عن كل شيء.

حتى لغته الأم، أرادها أن تصبح غريبة عنه. رغب في أن يعيش حياته اليومية كمنفى، منفى إرادي. لا يريد أن يكرر الماضي في الوقت الراهن. هو ليس بحاجة إلى مكانة اجتماعية.

نظم فرانسوا نزهة مساء أمس، بمناسبة سهرات شهر آب المقمرة. ذهبوا للفرجة معاً، على تكسير الفستق في حدائق باب الله. كانت نزهة خيالية بعض الشيء. الطقس لطيف، ودافئ، وصاح، والجو رومانسي كما يشتهيه المرء.

كانت ماري هناك، جميلة، حاضرة، يقظة. والقمر يلقي ضوءاً خفيفاً عليها ، كانت شاحبة الوجه.

شعر جان - باتيست بانفعال شديد، لكنه كان يظن أن كل لقاء مصيره الفشل. الماضي يعود والحب قد ضاع في الغياب. الحب وهم رائع وتافه. مجرد وهم.

لم يغمض له جفن طيلة الليل، حتى صلاة الفجر.

XX

إن الصراع الذي خاضه جان - باتيست مع العالم أوصله في نهاية المطاف إلى مكان آخر فيه من التناقض ما يكفي.

يعيش هناك حياة الأسواق المزدحمة، متوضعاً فوق ما يجري في الأسفل. وكي يصل إلى غرفته، عليه أن يمر في رواق مقبب ومظلم. لكل الأشياء التي يصادفها جان - باتيست، قصتان، واحدة تتعلق بصناعتها، والأخرى بوصولها إلى المنزل.

تتحرك جموع التجار والزبائن الصاخبة تحت قدميه.

أخبره فرانسوا أنه كان يسكن في بناء شُيِّد في العام ١٥٣٩، يدعى خان البرغل، خان القمح المجروش. حتى الأثاث مألوف لديه.

في خانات الأوروبيين، كل شيء يشبه ما تركه، مثل نسخة عما كان يعرفه.

لكنها نسخة مشوهة.

يريد أن يكتشف، لا أن يتعرّف.

التقى بمستعمرات التجار الأجانب الذين تجمعوا بحسب دولهم. إنهم يسكنون في خانات طيلة فترة إقامتهم، في بعض

الأحيان يبقون بضع عشرات من السنين، وفي معظم الأحيان لا يغادرون أبداَ. روى فرنسوا لجان - باتيست كل شيء عن الحياة هنا، بغية كسر حاجز الصمت. إنه يعرف العادات والطقوس، ما هو متعارف عليه وما كان متعارفاً عليه في الماضي. قال له، إنه لبضعة عقود خلت، كان يجب على التاجر الفرنسي، من حيث المبدأ، أن يطلب إذناً ويحصل عليه، من أجل الإقامة في الشرق. لم يكن بإمكانه البقاء أكثر من عشر سنوات، أو اصطحاب زوجته أو ابنته، ولا بإمكانه الزواج بامرأة من البلد. وكان الإصرار على حياة العزوبة، يعود إلى الظروف الشاقة والأوبئة. لكن طريقة الحياة هذه، بين الرجال، أدت إلى حدوث خلل مؤكد في المستعمرات الأجنبية. حتى أنه في العام ١٦٣٨، طلب قنصل فرنسا ألا يرسل إلى حلب سوى موظفين، تجاوزوا سن الثانية والعشرين، ومن المفترض أن يتمتعوا بالإدراك وحسن التصرف. وذكر فرانسوا بارتياح، أنه منذ منتصف القرن الماضي بدأت النساء بالوصول برفقة أزواجهن التجار أو الموظفين. راود جان - باتيست الشك بأن فرانسوا يعيش قصة حب سرية.

التقى جان - باتيست بماري بمناسبة عشاء وأمسية موسيقية؛ كانا يتبادلان النظرات.

إن الهندسة المعمارية للخانات تتيح المجال للسكان بالتقارب، فهي ملائمة للتجمعات. والشكل المغلق للبناء يُضفي على المكان،

هيئة تبعث على الشعور بالحماية. ويتمتع الأوروبيون المتحلقون حول قنصل دولتهم بالحماية والعزلة في آن معاً. فالباحة الداخلية لا تؤدي إلى السوق إلا من خلال باب وحيد. شعر جان - باتيست بأن هذا الباب يشبه الحدود. لم يعد يدري أين تقع حدوده الداخلية الخاصة به، لم يعد يعرف إن كان سجين الداخل أم سجين الخارج.

وفي المساء يُغلق الخان بدرفات المدخل الضخم الثقيلة المصنوعة من الخشب والمصفحة بالمسامير وبالمفصلات. المفتاح ضخم وثقيل الوزن، في السابق، كان يسلم إلى القنصل عند حلول الليل. ويوجد في القسم السفلي باب صغير جداً، مخصص للخروج الليلي؛ استخدمه جان - باتيست كثيرا في ليالي الأرق، ليذهب ويجول في طرقات المدينة المستغرقة في النوم.

وكثيراً ما أجبرت الفتن والأوبئة الأوروبيين على الانعزال في خاناتهم. كان عليهم عندئذ أن يلتزموا مسكنهم والمرور عبر الشرفات وأسطحة المنازل كي يتواصلوا ويتبادلوا الزيارات. وروى له فرانسوا أنه خلال أربعين عاماً، ظهر الطاعون في حلب ست مرات، كما حصد الوباء الأخير الذي انتشر ما بين عامي ١٨١٣ و١٨١٥ الآلاف. وتكررت حركات العصيان الشعبي، مثل النزاعات بين المجموعتين اللتين تتقاسمان ضبط السكان: الانكشاريين والأشراف.

اتكأ جان - باتيست على مرفقيه، وحيداً في الشرفة الواسعة.

«الله أكبر» ... دعوة إلى الصلاة، إلى البكاء، الجمل الحزينة لا تنتهي، يستأنفها جامع آخر، ثم آخر أيضاً. تحيط المآذن بالشرفة. ويبدو أنه حتى خلال الاجتياح المغولي، لم يتوقف المؤذن في حياته عن الدعوة إلى الصلاة.

استدعى جان - باتيست عذابه، أصبح عذاباً صرفاً، قريباً من السعادة. عذاباً مطلوباً ومبتغى. لا شيء يمكنه أن يقضي تماماً على الحب.

حاول أن يفصل ما بين العذاب المرتبط بهذه المرأة، والضيق المعتاد، هذا الضيق الذي ينتابه يومياً. ربما لو تمكن من فهم هذا، والاعتياد عليه، لاستطاع الاستجابة لنظرات ماري. لكن تراكم الأفكار الحزينة المستحوذ عليه منذ عدة أشهر أصبح ثقيلاً جداً. ولذيذاً جداً.

لم يبدِ مقاومة إزاء مسألة بقائه في موقع الضحية.

حلّق في السماء سرب حمام، على شكل دوائر كبيرة.

ولاستدعاء السرب، يطلق صاحبه الذي يقف على الشرفة مقابل قفصه، صفيراً متواصلاً. يُبرز نفسه بوضوح في الأفق، ويحرك بشكل دائري قطعة من القماش الأبيض معلقة على عصا طويلة. أجنحة تصفق محدثة دوامة هوائية.

بانتباه وسكون تذكر جان - باتيست حديث القنصل، الذي قال:

- هل تعرف أنه لفترة ليست ببعيدة كان الحمام هو المرسال الذي لا يُستغنى عنه في العلاقات بين اسكندرونة وحلب؟ أو تدري بأن المصريين والفرس والصينيين واليونانيين كانوا يستخدمون الحمام كمرسال للحرب والتجارة والسياسة. لقد قدّر صلاح الدين البريد بواسطة الحمام حق قدره، أثناء حصار طويل بشكل خاص. كانت الرسائل المخصصة تعلق تحت الجناح، وتنسخ وتعطى لعدة حمامات، للتأكد بأن واحدة منها على الأقل ستصل.

وشرح له القنصل المطّلع جداً، كيف يتم ذلك. كان المربي يختار زوجاً له صغار، ويصطحب الحمام على صهوة الحصان، إلى المكان الذي يجب أن ينطلق منه، ويحرص أن يترك الرؤية أمامه مفتوحة. فعندما يكون هناك أخبار يجب إرسالها، يُطلقها. فينطلق الحمام، المتعجل للقاء صغاره، بسرعة البرق.

شكل مرفأ اسكندرونة، الواقع على بعد مئات الكيلومترات ميناءً آمناً وعميقاً تستطيع القوارب أن ترسو فيه. وكل عام، تأتي عشرات السفن الفرنسية لتفريغ البضائع وتحميلها. وعندما يصل القارب إلى اسكندرونة، تُعلق بطاقة تحت جناح الحمام ويُطلق.

كانت تصل إلى حلب خلال ست ساعات. وكلما كانت الرؤية أوضح كلما عادت الحمامة بسهولة وسرعة أكبر.

كان حمامُ حلب أيضاً يستخدم كبريد باتجاه بغداد، وكانت عودته تستغرق يومين.

كانت المسافة بين حلب وميناءها تعرّض التجار لخطر قبائل النهاب من الأكراد والتركمان. إذ يرصد قطّاع الطرق القوافل، يسطون عليها ثم يهربون إلى الجبال. لم يعد الحمام اليوم مستخدماً لأن اللصوص عملوا على ذبحه.

XXI

أقام الفرنسيون أول مركز تجاري لهم عام ١٥٦٢ في خان الجمرك، وفي عام ١٦٨٠ غادروه إلى خان الحبال. واستقرت القنصلية الفرنسية ومراكزها التجارية فيه منذ عام ١٧٨٣. يعشق فرانسوا أن يشاطره أحد ما الإلفة التي يشعر بها تجاه الأمكنة، فجعل جان - باتيست يزور الخان بمنتهى التأني. يأوي الخان أجنحة القنصل الخاصة، ومساكن التجار وأعضاء بعض الرهبانيات المتواجدين في حماية الفرنسيين. وتمضي الحياة اليومية، المهنية منها والخاصة، داخل المبنى. يُسكِن القنصل الكاهن والجراح والتراجمة والانكشاريين. ويشعر فرانسوا بالفخر وهو يشرح أنه كان من واجب المنزل القنصلي الفرنسي الظهور بصورة مشرفة، لأنه منذ بداية منح الامتيازات الأجنبية، كان لقنصل فرنسا الأولوية بالنسبة لقنصلي إنكلترة وهولندا.

حفلات الاستقبال كثيرة، إذ تستقبل القنصلية الدول الأوروبية الأخرى بمناسبة الأعياد الدينية. لكن، يقول فرانسوا، مع بدء الثورة الفرنسية والحملة على مصر وحصار عكا، تدهورت

العلاقات الدبلوماسية بين الباب العالي وباريس، وتعرض الفرنسيون حينها إلى الكثير من المضايقات.

غير أن القاعة القنصلية واسعة الأرجاء، ويمكنها أن تتسع لجميع تجار المركز. يصلها ممر بكنيسة القنصلية وبصالتي استقبال. إحداهما مفروشة على الطريقة الأوروبية، لاستقبال الزوار الفرنجة، والأخرى مفروشة على الطريقة الشرقية، ومرتبة على شكل ديوان، من أجل اللقاءات التركية. كان فرانسوا يريد أن يجعل جان - باتيست يهتم، يتحرك. لكن، حتى لو أنهما أولاد عم، فهذا لا يعني أنهما مرا بالعواصف نفسها.

يحب فرانسوا القول أن فرنسا أصبحت الشريك الأوروبي الأول للشرق. فهي تصدّر شراشف من اللانغدوك[١]، وحشرة القرمز والنيلة والسكر والقصدير وقهوة الأنتيل[٢]...

وتستورد الحرائر والقطن المغزول و جوزة العفص....

قنصل فرنسا هو عم ماري.

هنا، في منزله، تقيم ماري.

(١) منطقة واقعة في الجنوب الغربي من فرنسا القديمة.

(٢) الأنتيل هو أرخبيل يفصل بين المحيط الأطلسي وبحر الأنتيل.

(المترجمة).

تجنبها جان - باتيست، فهو يفضل حياته في الأسواق. ورغم المودة التي يكنها لفرانسوا ولبعض التجار الآخرين، فإنه يرفض التسويات كافة.

أصبحت «المدينة» كل عالمه، يجد فيها كل ما يحتاج إليه في الوقت الراهن: حمامات، مقاه، أسواق. فيها يعرف أين هو؛ معتمداً على مراجع خارجة عن الأصول المتفق عليها، ألا وهي حواسه وخاصة حاسة الشم منها.

درس عادات المدينة منذ وصوله إليها. تحدث مثل الحلبيين، وكأنه مولود هناك. دأب على المطابقة بدقة بين لهجته ولهجة السكان، وتعابيرهم وسلوكهم. اعتمد اللباس العربي تماماً، لأسباب تتعلق بالاحتشام والأمن والراحة.

ورغم أنه ما زال ينام في غرفته في خان البرغل، استقر في عيادة قرب دكان العطار الصغير. ينظر إليه وهو يحضر أنواع الشراب والنقوع والمراهم حسب تقليد قديم. يشكل العطارون جمعية حرفية مزدهرة وقديمة. فتجارة الأعشاب الطبية والبهارات والعطور، هي تجارة هامة جداَ. فالعطارون[١] ينتمون إلى فروع تجارية ذات مكانة عالية.

الدكان أخاذ، مليء بالمواد العطرية من الأرض حتى السقف. ونجد على الأرفف وفي الأكياس المصنوعة من القنب والأدراج

(١) وردت في النص بلفظ عربي وأحرف لاتينية.

والقوارير والصناديق، كل ما يمكن أن يعالج ويعطر ويغذي وكل ما من شأنه أن يخلب الألباب أو يبعث على الراحة. كزبرة، فلفل، كمون، يانسون، قرفة، أزرار القرنفل، جوزة القيء، زنجبيل، كرويا[١]، زعفران، وسكر من أجل تصنيع الشرابات، زعتر، بابونج، زيزفون، توتياء، حب النيل، نبات الصبر، قرنجال، بلسم، صبغة الأفيون، نبتة المنيا، شبَة، خشب الصندل، كافور، نيلة، عنبر، عنبر خام، حشرة القرمز، أفيون....

إن التوابل ليست مستحضرات دوائية فقط، بل هي أيضاً مستحضرات تجميلية، لا يخلو منها الدكان.

يعرف العطار الخصائص الطبية للأعشاب كافة. يعرف كيف يُركب أدوية لعلاج الربو وحب الشباب والحروق والسعال. كما يصنع أنواعاً مليّنة من الشراب، لزقات لمعالجة الروماتيزم، قطرات للعين، وغيرها... ويصنع أيضا العطور والبخور ومساحيق تجميلية وصبغات.

ولا تنتقل الطريقة المتعارف عليها شفهياً سوى من الأب إلى الابن، لكنه غالباً ما كان يسمح لجان - باتيست أن ينظر إليه وهو يحضّر وصفاته.

ويتبادلان معارفهما حول المواد الطبية ودستور الصيدلة الشرقية والغربية.

---

(١) نبات زراعي من التوابل ومن الفصيلة الخيمية. (المترجمة).

يمضي جان - باتيست أيامه في ظلمة السوق الخفيفة، دون أن يرى النهار، في نوع من السكينة والاستسلام. مهنته مهنة جيدة، فالناس يرحبون به. أن يكون المرء طبيباً أمر يفتح الأبواب ويبعد الشكوك التي يثيرها الأجانب وغير المسلمين.

هنا لا يتدخل الناس بشؤون بعضهم بعضاً. يشعر أنه على الهامش، لا ينتمي لأهل البلد ولا لذويه، بقي فيما بينهما. وإن كانت أحلامه ما زالت تحدثه في معظم الأحيان عن المنطقة البعيدة التي قدم منها، فإنه لا يود أن يجدها هنا.

أثار مرض مستوطن خاص جداً بالمدينة فضول جان - باتيست: وهو حبة حلب. إنه نوع من القوباء[١]، تلتهب في بداية الأمر، وتتحول بعد ذلك إلى قرحة. ورغم اللزقات التي يصنعها العطار، تبقى هذه الحبة البشعة جداً لمدة سنة تقريباً في وجه من كان ضحيتها. وعندما تختفي، تترك ندبة مدى الحياة، وتشوه وجوه معظم سكان حلب. فرغم هواء المدينة الصحي والمنعش، كل شخص يبقى فيها أكثر من ثلاثة أشهر، معرض للإصابة بها. في بعض الأحيان تكون حضانتها طويلة جداً، قيل أنها بلغت عشر سنوات بعد الإقامة بضعة أشهر في حلب. وأصيب الكثير من الدبلوماسيين والموظفين الأجانب بهذا المرض. ومن أجل

(١) داء في الجسد يتقشرمنه الجلد، ويعرف عند العامة بالحزاز.

(المترجمة).

هذا السبب الجمالي، رفض البعض، وبتشجيع كبير من زوجاتهم، العمل في حلب. الجميع يقول أن سبب ظهور هذه الحبة يعود، دون شك، إلى مياه النهر الذي يسمى قويق. ويظن جان - باتيست أنه قد يكون داءاً خاصاً تحمله حشرة ما. إن سعيه لفهم أصل هذا المرض المستوطن سمح له بالخروج من حالة اجترار الذكريات التي يعيشها.

بعد الانتهاء من العمل، كان جان - باتيست يقبل، في بعض الأحيان، دعوة على العشاء أو نزهة مع سكان العالم العلوي.

من أجل ماري.

لكن ما يحبه هو حياة السوق. هناك يتواجد خارج المكان. حتى لو كان الجزء الميت في داخله حاضراً بكليّته.

السوق هو ملاذ آمن في وجه الزمان، خليط من الرجال، من المناطق كافة ومن كل البلدان. يتلاءم النور الخافت وإضاءة هذا العالم الداخلي مع حالاته النفسية. يحب أن يشعر بموجة الضوء، مثل لمسة تهبط من السقف المقبب. و يحب أن يتعايش الظل والضوء دون أن يلتقيا، ودون أن يتداخلا. على غرار عوالمه.

اكتشف خلف الفوضى الظاهرة في السوق، نظاماً صارماً. المنهج محدد ومتشابه في المدن الإسلامية كافة.

يتجمع الصّياغ، وبائعو المنتجات الثمينة والقماش والكتب والصيارفة قرب المسجد الكبير، لدرجة ملامسة جدرانه. وعلى

مسافة أبعد، توجد البضائع الأكثر تداولاً، العطور والبهارات والمواد الغذائية. وعلى مسافة أكثر بعداَ، تقع دكاكين الجزارة والدباغة والنحاس، وذلك بسبب الرائحة أو الضجة. يشعره هذا النظام بالأمان، ويبدل من الفوضى في داخله.

رنين الكؤوس المعدنية التي يحملها بائعو المشروبات المرطبة، مناقشات، مشجارات، رائحة الفلفل والقرفة والفانيليا.

روائح أعشاب تشفي.

فهل تشفيه؟

XXII

مثل فصل الصيف، حل فصل الشتاء دونما إنذار. في الصباح تبرز المآذن ببطء من خلال الضباب، وتتزلق حلب الرمادية، مثل مدينة نائمة لفترة من الزمن.

الطقس بارد وغائم.

استقر جان - باتيست بين عالمين، ينتمي إلى كليهما، دون أن يكون كلياً من أحدهما. يتناسب هذا مع ما يعتمل في ذاته من مشاعر، لكنه يبقى من الصعب أن يعيشه. يقف هذان العالمان جنباً إلى جنب، مع احتفاظ كل واحد منهما بوجود منفصل. يعمل الواحد منهما إلى جانب الآخر، دون أن يتداخلا، إلا اللهم في الشؤون التجارية. يشعر بتردد تجاه كلا الجهتين، دون أن يعقد النية على أن يختار بوضوح طريقة حياة محددة. من السهل هنا العيش إلى جانب الزمن، والأصعب هو الخروج من المكان الذي خُصص لك.

انتظمت حياته في تعاقب أزمنة وأمكنة منفصلة، متمايزة الواحدة عن الأخرى، دون وجود أحكام مسبقة لا اجتماعية، ولا دينية ولا أخلاقية.

حاول فرانسوا أن يجذبه نحو ذويه، لكن جان - باتيست يحب سكان هذا البلد واختلافاتهم. فبفضل ما يمثلونه من غرابة بالنسبة له، عاد إلى الحياة من جديد، وقبل أن يعترف بغرابته الخاصة. وتحملهم مثلما تحملوه.

حلم بمزج الفضاءات.

وكان يصدف أن ينضم إلى مجموعة من الفرنسيين، في نزهة أو في زيارة لموقع ما. وفي المساء، يشارك أحياناً في سهرات، حول موقد الخشب في خان الفرنسيين، أو في خان آخر.

يعزف جميع نزلاء الخانات، تقريباً، على آلة موسيقية.

ماري تعزف على آلة البيانو.

لبست في ذلك المساء، فستاناً حريرياً فاتح اللون، يبرز الهالات السوداء حول عينيها. وبحركة أنيقة سوَت شعرها خلف عنقها، وهي تنظر بعيداً. وبأطراف بنانها، لامست مفاتيح البيانو، ونور خفيف يضيء يديها. بدأت تعزف، بتركيز، وعيناها شبه مغمضتين.

في الخارج، السماء تضطرم، والمؤذن ينادي من بعيد. انتظرت وانصتت.

من ثم انطلقت مقطوعة موسيقية خافتة وخجلى.

سوناتات، موزارت.

بينما كانت منحنية إلى الأمام سرت ارتعاشات خفيفة في جسدها. بذلت جهداً، وهي تعرف أن الأنظار موجهة نحوها، والآذان مصغية إليها.

الجو حميمي.

التزم كل واحد الصمت، كي يتأمل هذه المرأة الغريبة.

غالب التأثر جان - باتيست وقاوم إغراء ماري، قاوم، على الأخص، كل ما تمثله.

هرب مرة أخرى.

لن يفكر.

تلّفتت نحوه من حين لآخر، ونظرت إليه.

وفي لحظة معينة، انحنت باتجاهه وتمتمت بضع كلمات، لم يسمعها.

إنه ليس بحاجة لأن يسمعها.

تحسنت حالته، فالجرح الذي دفعه للمجيء إلى حلب، لم يعد واضح المعالم، والألم أصبح أخف وأطهر. والرغبة التي كان يشعر بها تجاه من خانته، لم تعد سوى رغبة حرة، ليست بحاجة للتعلق بصورة محددة.

هذه الخسارة التي لا تعوض، لم يعد يسعى إلى تعويضها.

إنه مرتاح في السوق، يعرف جميع التجار. ويتعرف على البدو الذين يأتون من قلب الصحارى للتموّن من حلب. قدموا لشراء أقمشة مصنوعة من شعر الماعز المجدول من أَجل خيمتهم، وأدوات المطبخ والذهب.

عالج بين فينة وأخرى بعض البدو الرحل، من البرية الشرقية، الذين كانوا يترددون على أسواق المشرق.

منذ بعض الوقت، أخذ يلمح قرب عيادته، فتاة يانعة الشباب، تشبه الأيقونة، تجلس على مقربة من مشكاك بوابيج، باللونين الأصفر والذهبي، ومطرزة بخيوط فضية.

إنها هناك، ساكنة، غير مبالية بجموع الناس الغفيرة التي تمر. بدت له خارقة الجمال.

ضرب من الخيال.

كان لجمال المشهد الغريب وقعٌ في نفس جان - باتيست.

وفي وسط ضوعة الطيوب، تلوح صورتها في أشعة النور الذي يتسلل من القناطر ويخترق الظلمة. امرأة في ضوء الزجاج الملون.

شكلت نظرة الغضب في عينيها، خطراً على جان - باتيست. جعلته يرتجف.

جمال الفتاة الشابة جمال لا عيب فيه، خمار طويل يلفها، والإشراق يشع منها.

فمنذ أن اقتحمت مجاله البصري لم يعد يرى سواها. تحدّق فيه بأعصاب باردة. تسارعت ضربات قلب جان - باتيست، شعر بالحر، حاول أن يذهب، لكن العينين السوداوين منعتاه. إنها تتمتع بجمال نادر الوجود في هذا المكان، نصفها مخبأ بغلالة رقيقة سوداء وحمراء. كان متسمّراً أمامها ومتسائلاً فيما إذا عرف في يوم من الأيام عما كان يبحث.

شعر بكل التعب الذي يتملكه دفعة واحدة؛ شعر بكل الحنين المكبوت، وفي تلك اللحظة، وجد نفسه يلقي على تلك المرأة بكل ما كان قد ظن أنه ينتمي للأخرى.

كان ينتظر لقاء صورة ما؛ لا يمكنه أن يتخلى عن ألم إلا بألم آخر. يأتي ليتراكم فوق الألم الآخر ويصبح الأكثر حميمية، والأكثر غرابة بالنسبة له.

حاول جان - باتيست معرفة المزيد عن الفتاة الشابة، سأل العطار، الذي لا يعرف شيئاً، أو يدعي بأنه لا يعرف شيئاً. واكتفى التجار الآخرون الذين توجه إليهم بالتعبير عن تفاجئهم بالوجود النسائي في السوق. لم يقولوا شيئاً، لا بل أوصدوا الباب في وجه الأسئلة.

XXIII

لم يعد بإمكان جان - باتيست أن يترك حلب، حتى لو كان يريد ذلك. لا يستطيع التعبير عن مشاعره تجاه المدينة، لكنها مشاعر تثبّت أقدامه هناك. اللون، الأصوات، كلها تنادي شيئاً موجوداَ أصلاً في ذاته، شيئاً يناشده.

ما زال حتى الآن أسير تلك النظرة.

لكي يحب، يحتاج إلى فضاء غير عادي، غير مطروق. لكن، هل يمكن لحب جديد أن يكون دون أمل؟

تلك التي لا يعرف كيف يسميها، موجودة هناك كل صباح، عيناها متّقدتان، مزيّنتان بالكحل، وجفناها مزرقتان بالنيلة. تنظر إليه بإلحاح، وبعض الأحيان بابتسامة. تمنّى ألاّ يكون لهذه النظرة نهاية، وألا يكتفي أبدا بما يراه.

إنها شابة، بل فتية، لا بل يافعة، أتمت مرحلة الطفولة للتو. تلف معصميها أساور من الفضة، ويتدلى من أذنيها قرطان مشغولان. عينان متجهمتان، بشرة كامدة، شفتان مخضبتان بحمرة طبيعية. أخذت بعض حركات الرأس الرشيقة وإشارات يدها عندما تسوي خمارها، بمجامع قلب جان - باتيست.

خرج لاستنشاق الهواء، انتقل من عتمة السوق، إلى ضياء الشمس المبهر، من عالم إلى عالم آخر. الجوار جاف وقاحل، لم يبق في نفسه سوى التعب والألم. عندما يريد أن يفكر، يقف في ظل القلعة، بناء ضخم ومُطمئن، رمز النظام العسكري.

بهدوء، يكرر لنفسه بأن الفتاة الشابة المستحيلة، تعيش بالتأكيد في حماية قبيلتها، وتقاليدها. إنما ماذا تفعل هنا، لماذا تنظر إليه بهاتين العينين؟

بهدوء قال لنفسه بأنها أتت لتقيم في غور لم يعد يوجد فيه شيء. حاول أن يستبدل قصته القديمة بلقاء محكوم عليه بالفشل. لو أنه حاول الإمساك بهذا المستحيل، لوضع نهاية لهذا الحلم الذي يرويه منذ أن رآها في السوق. إنها أبعد من حدود لا يمكن عبورها. إنه يعي مسألة عدم قدرته على تحدي القوانين والأديان، لكنه يعرف أنه بحاجة لهذا الضغط النفسي.

إن يقينه في معرفة أن هذا الحب هو حب غير معقول، وفي أنه لن يلمس في حياته هذا الجسد الذي يخمن أنه جسد مثالي، وتأكده من لقاء تلك التي تهرب منه على الدوام، سمح له بإطلاق العنان لمشاعر دفنها بعناية منذ رحيله.

كل يوم تمعن النظر أكثر. لا طائل من أية كلمة، إن تلك النظرة تعرف الرغبة وتعرف استحالتها.

اليوم، لم تظهر إلا برهة، وهذا وقت كافٍ كي ترمقه بنظرة، وتبتسم له.

اشتاق لصديق دمشق. تعلّم، عندما يتحدث إليه، كيف يكتشف أفكاراَ مدفونة في نفسه منذ عهد طويل. فكتب له.

XXIV

رد الطبيب على رسالته قائلاً:

صديقي العزيز،

ليحفظك الله، الرحمن الرحيم، في كل ما تفعله.

إنك لا تعرف شيئاً عن تلك الفتاة الشابة، سوى حدّة نظرتها. لم تتبادل معها كلمة واحدة، وها أنت تضعها في صورة مثالية. إنها تمثّل ما يمكن أن يملأ فراغ الغياب، ويوقف تشرَد الفكر. وقع قلبك في الفخ.

كي تفهم أسباب اضطرابك، عليك القبول بأن ترى أنك تظنها واحدة أخرى.

بفضلها لاحظت، في نهاية المطاف، أنك فقدت المرأة التي جعلتك تتألم في فرنسا. لكنك إذا قبلت بالكفّ عن الانغلاق، ساكناً وحزيناً، في ذكرياتها، فاعمل على ألا يكون ذلك من أجل حب جديد فاشل. بفضلها أيضاً، رأيت أنك ما زلت تستطيع أن تشعر بالرغبة. إنها تمثل انبثاقاً لمكان آخر ممكن. لكن عليك أن تترك ملذات الكآبة السوداوية، والحلم الذي تحاول أن تعيشه، وهو

الحلم الخاص بشيء ما من الكمال الذي ضاع إلى الأبد. اترك تعلُقك الغريب بشبح.

لديك الوهم، هذا ما قلته لي، بأن الحب يُبعد الموت، وتؤمن بوجود كائن كامل سام قد يأتي ليسد كل الثغرات. لقد رمى بك غضبك المتهور بعيداً، إلى هذا البلد، على حافة الموت، على شفير الجنون.

بيد أنك تجر وراءك دائماً ماضياً ضائعاً.

إذا استخدمت هذه الطاقة المجنونة، الخارقة، التي يمكن أن يتطلبها الحصول على تلك المرأة شرعياً، وهنا لا يمكن أن يكون ذلك إلا شرعياً، فلن تحصد سوى خيبة الأمل. تمثل هذه الفتاة شيئاً منيعًا، لا يمكن إدراكه، لهذا السبب أنت تشعر بالحاجة إليها. إنها تسكن كل كلمة من كلماتك، كل فكرة من أفكارك، لكنني أعتقد بأنك فقط، بدلت المرأة لتعيش الحب عينه. إنها الرغبة نفسها بحب لا يرتوي ولا يعرف السكينة أبداً.

وجد هواك القديم، الذي طهّره الغياب، ثانية مبعثاً له في تلك المرأة الشابة.

تستبدل بالمستحيل، ما لا يستبدل.

تريد أن تتحدى عبء التقاليد، حسناً، لكن العناق لن يكون أبداً بالقوة التي توحي لكما بها نظراتكما. حافظ على مسافة الرغبة تلك، التي لا يمكن التغلب عليها ولا التمكن منها ولا

إشباعها. إن امتلاكها ليس هو الغاية من لقائكما. إنما الوعد هو وعد بالغياب، وبالصمت.

تسألني المشورة، قد تكون مع تلك الفتاة الشابة فحسب، قد اجتزت الحدود، وانتقلت من مكان إلى مكان آخر. اعمل على ألا تذهب إلى نفس المكان. وأظن أيضا أن الخلاص من آلامك هو المصالحة.

احرص على الرغبة، حافظ على شعورك بعدم الاكتمال، تغذّ من ذلك كي تشفى، وارتبط بإمرأة أخرى، بامرأة تحلّ لك. واحتفظ في نفسك بوجود غير مرئي، مثل خدعة في عمق ذاكرتك. ادفن سرك في جزء من قلبك.

اشتقنا إليك، وخاصة أنا، افتقد أحاديثنا، وصداقتنا.

امضِ قدماً يا صديقي.

ليحفظك الله من كل سوء.

الجزء الرابع
ماري

ماري، أحلام يقظة، أمل، أسئلة، حداد، ألم، منفى، احتياج، حضور، نظرة، بيانو، ترقب، رغبة، اندفاع، صوت، شهوة، كلام، وحدة، غياب، انتظار، تفكير، تأمل، غيرة، محبة، ضياع، جمال، ألفاظ، ولع، سر، موسيقا، نوم، آخر، نداء، دموع، تقبيل، ملل، انتظار، استحالة، أرق، عشق(١)، انتظار، حرارة، سكوت، كآبة، تثاؤب، عفة، عشيق، بكاء، إجابة، تبصر، شعر، عناق، تدفق، تنكر، شعور، انطباع، شغف، انتظار، صيد، عاشق، استبدال، صعوبة، مجنون(٢)، تجربة، اختبار، لا نهاية، محظورات، ليلى، نهاية، متعة، تقلب، تدفق، ممكن، رفض، عائق، شبح، حب، قصة، نقص، قطيعة، نبيل، سمراء، انتظار، مبادلة، إشارات، لغة، جسد، طلب، مثالية، سمو، عشق، اتحاد، تخيل، واقع، إيمان، انتظار، ذاكرة، سؤال، لذة، أحلام، انفصال، إنجاز، صبر، إرضاء،

---

(١) وردت في النص بلفظ عربي وأحرف لاتينية.

(٢) وردت في النص بلفظ عربي وأحرف لاتينية. (المترجمة).

XXV

ابتسمت ماري.

إنها لا تطرح الأسئلة التي تتزاحم وتتراكم. إنها تبتسم، كما هو متوقع أن تكون الأرملة، ابنة أخ القنصل.

منذ وصولها وهي قليلة الحركة، وقليلة الظهور، وغير موجودة هنا بكليّتها. كذلك لم تعد تنتمي إلى المكان الذي جاءت منه. إنها من مدينة جان - باتيست نفسها. لم تتمكن أبداً من البوح له بذلك. كان من الممكن أن تجمعهما ذكريات مشتركة، لكن كل واحد منهما أبعد عنه الذكريات.

تتبادل النساء الزيارات في قاعات الاستقبال، يشربن الشاي، ويتناولن معه المعجنات المنكهة بألذ النكهات، بالورد والمشمش والدراق، وعصير التوت والرمان. يتذمرن من البلد والحرّ والبرد والأمراض، ومن صوت المؤذن ليلاً. فضلاً عن ذلك، وفي سابقة مماثلة، كتب، عام ١٦٨٠، قنصل فرنسا في حلب، «الفارس دارفيو»، إلى وزيره قائلاً بأنه لم يعد بإمكانه البقاء في خان الجمرك، لأن المؤذن يوقظه كل ليلة في الساعة الرابعة صباحاً.

تبتسم ماري، لكنها تشعر بالحزن، طعم المرارة يملأ فمها. لا تعرف كيف يمكنها أن تندمج في المجتمع. إنها تحب صوت المؤذن الوقور، وخاصة في الليل.

ماري، المحرومة من شبابها، تشعر أنها وحيدة بسبب موت زوج لم تكد تعرفه، هي شخص تُقدم إليه التعازي، والاحترام عند اللزوم، لكن لا يوجه إليه الحديث، ولا ينصت إليه أحد. تكبح جماح اندفاعاتها باستمرار. كل واحد هنا، لديه ما يشغله، وما يقوله؛ فيما عداها.

إلا أنه لا يوجد في الخان سوى التجار ورجال الدين، حيث يلتقي المرء أيضا بمسافرين وطلاب من كل البلاد. وفي أغلب الأحيان يرافق التجار علماء ومؤرخون وجغرافيون ومنقبون. إنها فرصة لتبادل الأفكار، ولإقامة السهرات الصاخبة، وتقديم الإسهامات الثقافية الممتعة. رغم ذلك تشعر ماري أنها وحيدة.

إنها على الهامش.

في باحة الخان، تشاهد البضائع تصل من كل مكان، من كافة أصقاع العالم. سلع كمالية، منتجات ثمينة، بهارات، عقاقير، عطور، حرائر. كل هذا مادة للصفقات، كل هذا يكوّم ويكدّس، ويعاد توزيعه.

ترى القوافل تتشكل وتستعد لمواجهة الصحراء المترامية الأطراف.

وها هي اليوم، تعمل إحدى هذه القوافل بنشاط، كي توصل الرهبان الكبوشيين إلى إرساليتهم في بلاد ما بين النهرين.

ورأت أيضا جان - باتيست يمر.

رأته يعيش حياته، تابعت كل تحرّكاته. أثّر في نفسها شحوب وجهه، أحبت صوته الخافت، صوته المنكسر والشهواني، أحبت يديه ولون عينيه الشفاف. حضوره الصامت حضور قوي.

تحب هروبه من كل ما هو سائد.

من أين يأتي هذا اليقين أنه هو الرجل الذي تريده؟

الجميع يتساءل، لماذا لا يستقر بشكل نهائي في الخان، معهم.

لماذا يهرب منهم؟ لماذا يريد، وبإصرار، أن يعالج سكان البلد؟ ابن عمه يدافع عنه، لكن موقفه غير مرض.

لا يتحدث أبداً عن الماضي، لا يفصح عن أسباب سفره، لا يتحدث عن نفسه البتة. وتتساءل ماري عن الطرق المؤدية إليه.

تعلم أنه يتبادل الرسائل مع طبيب في دمشق، وأنه لا يتحدث لأحد سواه.

إنها تعلم بالأخصّ أنه يحمل وجهاً ما في صميم قلبه.

فهمت ماري أنه يجرجر وراءه ظل امرأة أينما ذهب، ليلاً أو نهاراً على حد سواء. عندما يتكلم، تسمع سرّه في قلب الكلمات

التي يلفظها، والكلمات التي يُسكتُها. كانت تود أن ينظر إليها دون أن يرى تلك المرأة في أعماق عينيها.

رأته ينظر إلى أخرى.

إنه بقربها، وتشعر أنها وحيدة.

حضوره يريحها ويحطمها.

يخامرها الشك فيما إذا كان لديها القوة الكافية للاستمرار. وكيف لا تفرّ من الجرح الدائم الذي يجعلها تكابده؟

ماري أقرب من أن يراها. نحوه تتصرف كل نظراتها، وحركاتها، وكلماتها ومرامها. آل بها المآل لتصبح متاحة ومتوقعة. يجدها دائماً هناك حيث يتوقعها أن تكون، سهلة ومستعدة أكثر مما ينبغي. شعرت بأن مزيجاً من الرغبات يتنازعه، رغبت في أن يحدثها عن هذا الظل القابع في أعماق عينيه.

لكنها مع ذلك تنسى أحياناً قواعد وآداب السلوك، فلا تعود تعرف كيف تأكل ولا تنام ولا تتكلم ولا تبتسم. لا تعود تعرف سوى انتظار أن يراها. إن الفكرة التي شكلتها عنه خارجة عن إرادتها، تعيش في داخلها، وتنسل بينها وبين العالم.

أصبح وجود هذا الرجل في حياتها لا غنى عنه.

جميع هؤلاء السيدات يتحدثن عن ماري في غيابها. ويتساءلن إن كانت ستتزوج. شعرن دون شك بالامتعاض، لما رأينها تتجاهل محاولات تاجر بيروت الغني هذا للتقرب منها، وقد سبق وأتى عدة مرات إلى حلب. إنه عجوز وقبيح ولطيف للغاية. يجلب لها في كل رحلة من رحلاته حرائر وأقمشة مطرزة بخيوط ذهبية، وصناديق مرصعة باللؤلؤ، وشالات من الكشمير، تلتف بها وتخفي أفكارها. إنها تعيش حالة حب، فهي بحاجة للدفء. إنهم يجدونها صعبة المراس في وضعها هذا.

XXVI

في بعض الأمسيات، وفي اللحظة التي يخيّم فيها الليل على المآذن المتطاولة، ويبرزها في سماء الغروب الموشاة باللون الذهبي، تشعر ماري بانقباض شديد، صامت. يمتزج الجمال واليأس في حميمية مطلقة ، كما لو أنهما مرتبطان ببعضهما.

وفي الصباح، وبسبب امرأة لا تعرف عنها شيئاً، تجد نفسها منهكة، متألمة ومذعورة. وتتملكها الرغبة في أن تكون تلك المرأة.

في بعض الأحيان تحلم بها شبحاً ضبابي الملامح، رمادي اللون دائم التهديد. وفي أحيان أخرى تراها على شكل خطيبة شاحبة، لا بل أحياناً عشيقة متطلبة. تفكر فيها كما لو كانت شخصاً حقيقياً في حياتها. وبرفقتها جان - باتيست.

ولا تكف عن كونها عذاباً أليماً.

ولو أن ماري لا تعرف شيئاً عن عناقهما، عن لقاءاتهما، عن أوهامهما، ولا تعرف شيئاً أيضاً عما يجمعهما، ولا عما يفرقهما، فإنها تحس بكل ما يشعر به جان - باتيست من ألم. إنها هنا، كما هي، في كل عبارة من عباراته الكئيبة، في كل تجعّد من

تجاعيد وجهه، في كل غياب من غياباته، في كل مرة ينكسر فيها صوته فجأة، وفي كل نظرة متجهمة من نظرات عينيه.

تخيلت ماري تلك المرأة كثيراَ، حتى إنِّها لم تعد تدري إن كانت مغرمة به أم بها؛ وتاهت في الصور التي تبتدعها.

تحت جنح الليل، كانت تسمع صرير باب الخان الحذر، وتعرف أنه ذهب ليتمشى في المدينة. إنه يفكر فيها، أمر معروف بالنسبة لها.

إنه قريب ولا يمكن إدراكه. ماري تنظر إليه، وهذا يزعجه. فالوحدة أيضا هي حرية يصعب احتمالها.

في هذه الأيام، زاد في ابتعاده أكثر من قبل.

ثمة شغف لاكتشاف الشرق في نهاية القرن الماضي، وانتقل إلى الدبلوماسيين وأعضاء الإرساليات. أصر القنصل البارحة على اصطحاب جان - باتيست وفرانسوا وآخرين لزيارة كنيسة القديس سمعان، التي تبعد ثلاثين كيلومتراً عن حلب. وجد جان - باتيست وماري نفسيهما قرب بعضهما. يسيران بمفرديهما في الموقع المهيب. كل شيء كان هادئاً، حاراً، صامتاً. كانت الآثار متداخلة مع المنظر، متآكلة. حدث لها فيما مضى كل ما يمكن أن يحدث، فما من شيء يمسّها بعد الآن.

أشارت ماري إلى العمود المتآكل بفعل السنين والرياح والأمطار والشمس. هناك حيث أقام سمعان العمودي قرب

السماء لمدة أربعين عاماً. ارتبط بالحياة الدنيوية ببضعة أمتار من الحجر فقط، كان يبحث عن الطهر، بمنأى عن كل شيء، لم يكن يعنيه سوى الجوهر.

بالأمس، كان الزمن يبدو متوقفاً، والهواء كثيفاً، والسماء واسعة، لا نهاية لها.

بقيا معاً لمدة طويلة، قلّما تبادلا فيها الكلام، وانفرد كل واحد منهما في حزنه. الوقت في سكون، بصمات الذاكرة تنوء بثقلها عليهما، وتعيدهما إلى وحدة مؤلمة لا تقهر. كان الأفق بلا نهاية. كما غدت الصحراء المجاورة التي شهدت قدوم الكثير من الحجاج بهدف التأمل، خالية.

كآبة على خلفية من الأطلال.

ماذا كانا ينتظران أمام هذا الاتساع اللامحدود، أمام هذا العالم المتوحش؟

في صمت الأمكنة، رفض جان - باتيست وماري سعادة حسية على وشك الحدوث، من أجل مشاعر أكثر غموضاً. كان الإحساس المستمر بفكرة مجردة يفرض نفسه، دون أن يُعبر عنه بالكلمات.

كلاهما يعيش انتظاراً مضنياً، تسكنهما وحدة قاسية. الواحد إلى جانب الآخر، يسأل الأفق الخالي والساكن؛ الساكن منذ آلاف السنين.

ليس لديهما الجرأة لينظر أحدهما إلى الآخر.

كانت ماري تشعر بالإنهاك بسبب إحساسها بجسد جان - باتيست بالقرب من جسدها، ورغبتها بملامسته. تخفي دموعها وراء ابتسامة باهتة. أما هو فكان غائباً عن كل شيء، اللهم سوى عن العشق الذي مازال منقوشاً على الأطلال. كانت من حين لآخر تتأثر بكلمة منه، يقولها بنبرة فيها الكثير من الدفء والوقار، أو بإحساس خاص كان يسبغه على لفظ ما.

من ثم توقفا عن الكلام تماماً.

شعرا بالحيرة ما بين واقع هذه الكنيسة المتهاوية في جزء كبير منها، المضعضة والمنهكةْ من عوامل الزمن والاضطراب الذي كان يسكنهما.

ما زال حضور العمودي يملأ الأمكنة، ويرفرف على الموقع شعور بالأبدية والجمال المطلق.

عاد الآخرون متجهين نحوهم، في غضون ذلك أصبح جان - باتيست في مكان آخر، وفي نفسه لهفة للعودة إلى «المدينة».

XXVII

عاد الربيع دون سابق إنذار.

تتابع الخانات، المحصورة في متاهة أزقة سوقها، حياتها خارج نطاق الحياة المحلية، وهي ترى ثروات الشرق كافة تمر في قلبها. ويستمر لدى جان - باتيست الشعور بالانقسام. يشعر بالاطمئنان، عندما يقال إنَّ حلب، أقدم مدينة في العالم، ما زالت مأهولة. وكأن هذا يمكن أن يضمن المستقبل. المدينة تحتويه، وتحميه. ويطمئنه أيضاً أن «المدينة» تقع في حمى قلعتها، وأن قباب السوق تساعدها على اتقاء الحر صيفاً، والبرد شتاء. تأوي جميع الأسواق تقريباً، قبر أحد القديسين. هنا، قبر والد القديس يوحنا المعمدان. يشعر جان - باتيست بالأمان قرب المزار. يلقى الحضور المقدس جزيل الاحترام، إذ لا يجب الإساءة إلى جو السلام المخيم على مكان مكرَّس، لا يجب استثارة العقاب الإلهي.

بدت الأشياء ثابتة لا تتغير، القنصليات، والأبنية والعادات.

لم يعثر عما كان يبحث، غادر بعيداً، لكنه لم يبتعد عن ذاته. أمن الممكن أنه قد وجد ما لم يكن يبحث عنه، وهو المكان اللازم

له فقط كي يحتمي من العالم، ويعيش حلمه؛ أو كابوسه. ومن جهة أخرى، ولأن المرأة التي يحبها ضاعت فإنه يحتفظ بها.

رحلة غريبة.

لا تتوافق أحلامه تماماً مع العالم. فهو مجبر، طوال الوقت، على الانتقال من عالم السمو إلى عالم الواقع.

أراد أن ينفصل، أن يبتعد، واستمر في بعض الليالي بالسفر في داخله.

اختفت فتاة السوق الشابة.

في صباح أحد الأيام تركت مكانها.

في كل يوم، يعود جان - باتيست إلى المكان الخالي. دون أية بارقة أمل. الناس منهمكون في العمل، يلفّهم ضوء غريب. نقَل نظره هنا وهناك، دون أن يتمكن من تثبيته على شيء ما.

جلس على مقعد بائع البوابيج. وبعد تبادل المجاملات المتعارف عليها، وتناول القهوة، طرح أسئلة محددة أكثر عن الغائبة. نظر إليه التاجر بحذر وبابتسامة مبهمة. تابع جان - باتيست ارتشاف القهوة، أحس بطعم لاذع في فمه. شعر بالارتباك.

التزم التاجر جانب الصمت.

شعر أن شيئاً ما ينقصه.

وشخصاً ما ينقصه على الدوام.

وبما أنه يعيش أصلاً في عالمين منفصلين، ها هو الآن يفصل الحب عن الحياة.

اقتنع أن الحب أمر لا إرادي، وأن الحب يعني الخسارة دائماً، وأن الحب يعني التألم، وأن اللقاء محكوم عليه بالفشل، وأن الرغبة تموت عند إشباعها. اقتنع بذلك.

إنه متعب مما هو عليه، متعب من تكرار ما هو أكثر إيلاماَ. إنه متعب.

اقتنع أن الشعور الذي تملكه إزاء المرأة الشابة كان بدافع الحس الجمالي الصرف، جمال لمع كالبرق من خلال شعاع ضوء خافت.

ومع ذلك، أزال هذا الانبهار الأعمى قليلاً من أثر المرأة الأخرى في داخله. إن ما يلزمه الآن هو الوقت. لا شيء سوى الوقت. الفشل هو فشل داخلي، لا يأتي من الخارج.

إن الفترة الوحيدة التي تخف خلالها حدة التوتر، هي الفترة التي يقضيها في الحمام. هناك فقط، يسترخي ويستسلم. وتسقط المغالاة في مشاعر الحب. هنا يكف عن التألم وعن إنكار جسده.

الجزء الخامس

زلزال

ارتجافات، ضوضاء، أرض، زلزال، ارتجاجات، نهاية العالم، اهتزاز، انهيار، اعصار، انفجار، فوضى، غبار، تصدع، فوضى، طقطقة، تهافت، ذعر، حركة، كارثة، هزة أرضية، صدع، هوَة، صيحات، كسر، انفجار، خرائب، ضجة، دمار، شقَ، رعب، خوف، فزع، تأرجح، سقوط، فتحة، خراب، تصدع، اختلاج، بقايا، أشلاء، غور، كتل حجرية، تحطم، حطام، صرخات، أنقاض، هوة، أمل، عنف، مغادرة، كسر، خليط، ماض، هلع، ثلم، فوضى، بلبلة، انفجار، تداع، مذبحة، مصيبة، تدافع، أحشاء، دوي، ارتجاجات، ترنح، شدة، سلم، تصدع، قشرة أرضية، تربة، شق، رصَ، تشوه، طاقة، طوف، اهتزازات، ردَ، اتساع، موقد، نشاط، قشرة، هلع، ناجون، تذبذب، مركز الزلزال السطحي، خط.

XXVIII

جو خانق.

أنهى القنصل الفرنسي طعام الغذاء مع صديقه وزميله قنصل هولندا. الحرارة شديدة، خانقة. شهر آب، على وجه الخصوص، شهر حار.

جميع الناس يركنون إلى الراحة في الخان، بانتظار أوقات أكثر رطوبة.

سمع القنصلان وقع خطى متسارعة في الباحة. ثم دخل أحد الخدم وأعلن عن وصول أحد ما، يود التحدث إليهما بأي شكل؛ وعلى الفور.

تشاورا بانزعاج، ووافقاً على استقباله.

- قال الرجل لاهثاً: يجب أن أقابل قنصل إنكلترة بأي شكل من الأشكال. أحمل إليه رسالة على جانب كبير من الأهمية، من قبل «الليدي هيستر ستانهوب». إنه ليس في منزله، بحثت عنه في كل مكان. أين يمكنني أن أجده؟

- أجاب ممثل فرنسا قائلاً: لكن السيد باركر ليس في حلب حالياً. إنه في أنطاكية. إهدأ، وحدثنا عن سبب اضطرابك.

أجلس القنصلان الرسول بارتباك. قدما له القهوة، وطلبا منه أن يروي حكايته دون انفعال.

- بدأ قصته قائلاً: يعيش في لبنان، ضمن حاشية «الليدي ستانهوب»، في جون [1]، شاب فرنسي يدعى لوستونو. ويقال بأن لديه ملكات مستحضر الأرواح. ويملك موهبة خاصة يعرفها الجميع. استيقظ البارحة صباحاً، قلقاً ومتضايقاً جداً، وهرع مسرعاً للقاء «الليدي ستانهوب»[2]. وأخبرها عن الإحساس القوي الذي شعر به في أثناء الليل. استولى عليه كلياً، حدس ينبئ عن قرب وقوع كارثة فظيعة في سورية الشمالية. فأمرتني «الليدي ستانهوب» بالإسراع وإخبار صديقها السيد باركر بذلك.

تبادل السيدان دولسيبس وماسييك النظرات بحيرة. راودهما الشك، ولم يرعبهما حدس ذلك الشاب الذي يتردد على سيدة جون. وقررا أن يعزيا هذه المعلومة الغريبة إلى طبيعة تلك السيدة الساذجة.

---

(١) جون: منطقة على الساحل اللبناني، تقع شمال جونيه وجنوب طبرجا. (المترجمة).

(٢) الليدي ستانهوب: مغامرة إنكليزية من عائلة ارستقراطية، قصّدت الشرق وأقامت فيه، وتركت مذكراتها حول حياتها في مصر وسورية ولبنان. وتركيا، وصلت إلى الشرق سنة ١٨١٠ وتجولت فيه وعاشت بقية حياتها في لبنان إلى وفاتها سنة ١٨٣٩.

تأسف كلاهما لغياب قنصل إنكلترة الذي يعدُّ شخصية هامة في حلب. استقر فيها قبل عشرين سنة، أي في عام ١٧٩٩. كان يقوم حينها بمهام القنصل الإقليمي. قال السيد ماسييك، يبدو ذلك الآن من الزمن الغابر، كان يهتم بالاتصالات البريدية بين لندن والهند. وذكّر ادموند دولسيبيس صديقه، أن حملة نابليون على مصر أعاقت الطريق البحري وأن البريد كان يمر عبر ألمانيا والبلقان والقسطنطينية. ومن هناك، كان التتار يأخذون على عاتقهم مسؤولية إيصاله إلى بغداد والبصرة مروراً بحلب.

- لقد شغل جون بيكر منصب قنصل حلب منذ عام ١٨٠٣، هذا إذا استثنينا مدة إقامته في الإسكندرية، كان يقوم بعمله ويشارك في الاحتفالات بالتناوب، إنه مولع بكل ما يتعلق بالمدينة. ثم سأل ادموند دوليسيبس قائلاً: هل تعتقد أنه من الممكن أن يأخذ احتمال وقوع الكارثة على محمل الجد؟

- هذا ممكن. لكن ماذا بإمكاننا أن نفعل؟ ما أعرفه هو أن موضوع الزلازل يثير اهتمامه. لقد روى لي أنه في عام ٥٢٢، ضربت هزات أرضية عنيفة، دمشق وحلب وحماة وجزءاً كبيراً من سورية ومن الشرق. خلّف ذلك عدداً ضخماً من الضحايا. وكان يحب أن يروي قصة مدرس حماة الذي خرج لقضاء حاجة، وعند عودته وجد المدرسة منهارة فوق

رؤوس الأطفال جميعهم. والأسوأ من ذلك، هو أنه لم يأت أحد من الأهالي للمطالبة بهم، فالجميع اختطفهم الموت، ودفنوا تحت أنقاض منازلهم.

التزم الرجلان الصمت مرتابين. ارتشفا قهوتهما ببطء، بقيا جالسين في مقعدهما، لم يعد هناك ما يقال. ومرت في عينيهما صوَر عديدة.

XXIX

تجوّل جان - باتيست طيلة أمسية الثالث عشر من شهر آب عام ١٨٢٢ في شوارع حلب، لا أمل له سوى أن يدع الضوضاء والروائح تنفذ إلى داخله. الجو هنا مختلف عن جو السوق، أكثر حميميةً وهدوءاً. جازف بالذهاب إلى أحياء لم يكن يعرفها. وعثر بالصدفة على مسجد صغير ذي أبعاد مثالية. كان لهذا التناسق الغريب في هذا المكان، أثر مبهم في نفسه.

تملكته رغبة بالبكاء.

لا يعرف لماذا.

ثم فجأة تملكه شعور باليقين.

متعب ومذعور بعض الشيء، انساق في وسط ازدحام الجموع الغفيرة التي تدفعه دون أن تراه. عاد إلى غرفته وبدأ يكتب، بسرعة كبيرة، حسب توارُد الأفكار إلى ذهنه:

«أينما كنت يا حبيبتي ومهما كانت الحياة التي تعيشينها، يجب أن أحدثك عن الطريق الذي مشيته. ليس الطريق بمعناه الحقيقي، وإنما الطريق الآخر الذي يمر في أعماق فكري ونفسي.

لم أتخل عنك يوماً، لم يخرج من صدري نفس أو يدخل إليه، دون أن يكون حضورك جلياً في حياتي. عبرت آلاف الكيلومترات، عشت سنوات من الألم، كي أجتاز فقط مسافة داخلية متناهية في الصغر، حققت تقدماً بسيطاً، لكنني اليوم، ولأول مرة، قبلت. قبلت الاستمرار في حب امرأة أكرهها أيضاً.

إن الشعور الذي أكنّه لك، ترّسخ في كياني، ليس بكلمات عبّرت بها عنه، وإنما من قبل البوح به.

وها أنا ذا لا أملك الوسائل للمقاومة. سأتوقف إذاً عن الرغبة بنسيانك، والرغبة بقتلك. سأتأقلم مع وجودك في ذاتي، إنما دون أن تكوني معي. إن قبول ذلك، يجعلني أتجاوز القطيعة. قسوتك لا تهم، هذا الألم جعلني أحيا، أصبح جزءاً مني. ما بقي ليس فقط قصة الخيانة الدنيئة، إن ما بقي كذلك هو التأجج الهائل لمشاعر، كانت مشاعرنا. ومشاعرك أيضاً. من الممكن أن ترفضي تذكَر ذلك، لكنك ما زلت تدركين، مثلي، معنى اتحاد جسدينا. لا شيء يمحو ذلك، حتى الحياة التي تعيشينها حالياً والتي لا أعرف عنها شيئاً.

منذ أن رحلت، فكرت فيك في كل خطوة كانت تبعدني عنك، وفي كل لحظة من حياتي.

تمنيت لك أقسى الآلام، وأشد الخيبات. لا شيء على الإطلاق هدأ من روعي، سوى جمال هذا البلد وغرابته.

هذا المساء أستطيع أن أقول لك: أحبك. لأنني لم أعد أتوقع شيئاً منك، ولا أتوقع شيئاً مني. قبلت في النهاية، أن يبقى هذا الحب المجنون في قلبي، توقفت عن طرده، أفسحت له مكاناً. ببساطة، أظن أن كل منا أحب الآخر، بعنف شديد، إلى حد لم يمكَنه من أن يستمر، ولا من أن ينتهي.

سأعيش الآن شيئاً آخر. وبشكل مختلف».

XXX

خيّم الليل تماماً، والصمت مطبق لدرجة تبعث على القلق. تملك جان - باتيست شعور غريب بالضيق. هذه حالة مألوفة بالنسبة له، لدرجة لا تثير قلقه أكثر من المعتاد. الساعة هي الآن بالضبط التاسعة والخمسين دقيقة مساءً. سيعود إلى الخان بعد أن يتناول العشاء عند العطار.

في اللحظة التي مر بها من أمام المسجد الكبير، سُمعت أصوات هدير غريب. أصوات غير مألوفة، عجيبة، لا تشبه شيئاً مما هو معروف.

تبادل الرجال الموجودون في الشارع النظرات، وشعروا بضغط غير عادي تحت أقدامهم. عمّ الخوف.

اهتزت الأرض تحت أقدامهم، وأصبحت تتحرك كما لو أن الحياة كانت تدب في أوصال الكرة الأرضية، كما لو أنها تعيش طوراً من التحول. توقف جان - باتيست، عطشاناً، باحثاً عن شيء يستند عليه. استمر الضجيج الخافت، شعر الناس بارتجاجات أخذت تزداد ثم أصبحت عنيفة. بدا كل شيء خارج

السيطرة. الطريق تترنح، الحجارة تسقط، الأرض تتموج، وانفجارات تنطلق في الأسفل.

ظهر أول تصدع في حائط الجامع الكبير.

اهتزت الأرض، واهتزت الأجساد، وأخذت الكتل الجدارية تتصدّع.

بلبلة.

الأرض تتلوى، الناس تترنح، تركض، تصرخ.

الكرة الأرضية ترتج، تئن، وتتدحرج.

الخطر هو خطر الفناء التام، المطلق.

أصبحت الاهتزازات عنيفة أكثر فأكثر، وتضاعفت الأمواج الهائجة. وأصيبت الأرض باختلاجات، انفتحت، بقرت بطنها، تشوهت، اتسعت، مالت، انغلقت، انقلبت رأساَ على عقب، وتدحرجت الكتل.

إنه انفجار الأرض، انفجار اليأس، إنها نهاية العالم.

هزة أخرى صعقت جان - باتيست، إنه يلهث، يغطيه الغبار، يبلله العرق ويروّعه الرعب. خوف شديد. دفعه تأرجح التربة باتجاه رجل ملقى أرضاً. انهارت الأرض تحت قدميه، فتمسك بجزء بناء منهار.

ما من نسمة هواء، والضغط لا يمكن احتماله. ملأ الجو غبار ضارب إلى البياض. كل شيء يهتز، الأرض، ما تحت الأرض، الشارع، الأبنية، الآثارات، الناس. البلد بأسرها اهتزت، هزات عنيفة. كل شيء تداعى.

فجأة، هبت ريح عاتية محدثة ضجة رهيبة، اختلطت بقصف الرعد الصاخب تحت الأرض.

صرخات، أصوات انهيارات مروّعة. غيوم من الغبار. جدران متصدعة.

ما زالت الأرض تهتز. الهزة الأولى أيقظت المدينة وأثارت هلعاً شديداً. أصيب جان - باتيست بالذهول. أناس يتدفقون من كل حدب وصوب، يجرون، يصرخون، ينادون بعضهم بعضاً، يريدون أن يجدوا ملاذاً لهم. ينتظرون النهاية بيأس. لم يبق سوى غريزة البقاء، الناس لا يفكرون، لا يفعلون شيئاً، إنهم يقاومون. يجب ألاّ تبتلعهم أحشاء الأرض، يجب أن يبقوا على قيد الحياة.

تهاوت الأسوار فوق بعضها. وبدت المسافات متداخلة فيما بينها. أشد الأبنية صلابة، ترنحت فوق أساساتها؛ ومن الممكن أن تنهار في أية لحظة. تحطمت الأوابد المرتفعة والمآذن عن بكرة أبيها.

غصت الشوارع بحطام من كل شكل ولون، انسحق الناس تحت الأنقاض. واجتاحت الجو غيوم خانقة من الغبار.

الكارثة مروّعة.

وخلال لحظة توقف، شعر جان - باتيست بنظرة رجل يتقدم نحوه. بدا متردداً، وأشار إليه أن يتبعه وسط كتل الحجارة المكدسة فوق بعضها. بيوت مهدمة تماماً، غدت أكواماً من الحجارة، الحرائق تشتعل.

دخلا إلى منزل منهار، تسللا عبر الأنقاض.

تزلزلت الأرض مجدداً. اهتزازات جديدة للقشرة الأرضية. شق حديث، كل شيء يجري باتجاهه، الاهتزاز يجر كل شيء نحوه.

أثلام أخرى شقت الأرض، محدثة تحطماً رهيباً. الخطوط تكسرت.

صرخات. انتظار نهاية العالم.

مذهولان وواجفا القلب. الأرض سالت. حجارة انفصلت عن الجدران، أسقف تفككت، جسور التوت، حواجز انفجرت. الأشياء المدفونة في أعماق الأرض انبثقت من جديد.

بأيد عارية، أزالا الأنقاض معاً ليفتحا طريقاً باتجاه هيئة إنسان، موجودة في غرفة هدم نصفها حائط منهار.

وهنا، وجد جان - باتيست نفسه وجهاً لوجه مع فتاة السوق الشابة بين ذراعي أمها. إمرأتان فارقتا الحياة، تضمان بعضهما، في فقر واضح ومحزن.

ويبحث الناس بين هزة وأخرى عن جثث أقربائهم، ويتكفلون بالجرحى. كما كان عليهم أيضاً الحصول على السلاح لمواجهة اللصوص.

صرخات تجعل القلب ينفطر وتأوهات حزينة.

سُمعت في خان الأوروبيين صرخات هلع بكافة اللغات واللهجات. سارع الفرنجة، الذين كانوا نائمين على الشرفات، بالنزول إلى أزقة السوق الضيقة. هناك، حتى ليصعب على أربعة أشخاص من المرور وجهاً لوجه، تزدحم جموع الناس وتتدافع هرباً من الكارثة.

وجد الناجون الأوروبيون أنفسهم على أبواب المدينة. يصلون راكعين، يذرفون الدموع، يتعانقون. وانتهت بعض الارتجاجات من تقويض ما تركته الهزات الأولى منتصباً.

تكررت الهزات العنيفة كل ربع ساعة، حتى الساعة الواحدة صباحاً. وبعد ذلك كل نصف ساعة حتى بزوغ الفجر.

إنه ليل لا نهاية له، ليل سرمدي كارثي.

في السماء، عادت النجوم وشغلت أمكنتها المعتادة، سماء رحبة لا تُرى إلا في هذه المنطقة من العالم.

XXXI

في وسط هذه الفاجعة استعاد جان - باتيست وعيه، وألّحت عليه فكرة واضحة: من بقي على قيد الحياة؟ ومن انتقل إلى رحمة الله؟

أين ماري؟

دخل مرتجفاً إلى الخان، حيث تسكن، اجتاز الفناء بصعوبة. شعر بالخوف وبانقباض وتوتر شديدين، قلبه يخفق بقوة، تقدم في بقايا المبنى، وسط أنين الحيوانات المذعورة.

الغرف مهجورة، والأسى يسكن قاعة الاستقبال المزينة بالذهب، الجدران متفككة، ومغطاة بالشقوق. صفائح معدنية واقعة على السجاجيد، الألواح الخشبية ظاهرة للعيان، أواني الطعام ملقاة على الأرض، الكؤوس والقوارير محطمة.

الأثاث مكسور، مخلّع، مقلوب، مُتشظ.

شعر بصعوبة في التنفس، وحرك وجهه المسمر من الرعب، باحثاً عن ماري.

النهار لم يشرق بعد.

عضلاته تؤلمه، شعر بوجع في كل جسمه. احتار في أمره. استند إلى حائط، وهو يشعر بالعطش وبدوار في رأسه، وحاول أن يدرك فداحة الكارثة.

اعتاد على الدوار، اعتاد الحرص على الحياة، فهو يعرفها في أشدّ حالات ضعفها.

ودون أن يشعر، غاب عن الوعي. بقي في حالة الإغماء هذه حتى بزوغ الفجر.

المؤذن. دعوة صارمة تقطع أوصال الليل، وبالذات هذه الليلة.

عندما استيقظ وجد ماري إلى جانبه، عيناها غائرتان، تحيط بهما هالات سوداء. شاحبة، ممتقعة. قسمات وجهها المضطرب تعبر عن الفاجعة.

كان يجب أن تحدث هزة أرضية كي يلاحظ جان - باتيست وجودها، كي يراها.

وضع يده على يدها، وجذبها إلى صدره.

لحظة سعادة خاطفة.

XXXII

في اليوم التالي، عند طلوع النهار، بدا المنظر كابوساً، فجر حزين، وأناس منكوبة.

خراب وأسى. جحيم من الدمار، من الموت، من الهلع، من الدموع.

لا يمكن التعرف على أي شيء. أشرقت أشعة الشمس الحزينة على مدينة مهشمة دمرها العنف. هزّ الزلزال كل الأبنية، حتى أساساتها، وهدم جزءاً كبيراً من جدرانها.

أصبحت حلب ميداناً مدمراً، محطماً. أبعاد الحدث لا إنسانية وقاسية جداً.

بدت المدة المتراوحة ما بين عشر ثواني واثنتي عشرة ثانية، قروناً.

الاضطراب غير اعتيادي. البلبلة شاملة في هذا العالم المنظّم بإحكام. توقفت الأشغال كافة بسبب انتشار الفوضى. تناهى إلى سمعِ جان عند مروره من أمام بيمارستان أرغون أنيناً ينبعث من زنزانات المختلين عقليا، ورأى خيالات تترنح.

اختفت الحدود التي تفصل ما بين الناس وما بين الأنظمة القائمة. لم يعد المرء يرى سوى الظلال الهائمة لهؤلاء الذين يبحثون عن ذويهم وأصدقائهم وأحبائهم.

التقى العالم العلوي بالعالم السفلي. أخيراَ، تداخلت المسافات التي كان تخطيها متعذراَ.

غيَر الزلزال ما كان يبدو محدداً إلى الأبد، وأطاح بالتوازن.

تزعزعت الجدران والأفكار والقيم الراسخة. هنا حيث كان يخيم نظام ثابت، اختلط كل شيء. إنه موت النظام، والفوضى لا توصف؛ أتت من أعماق الأرض. تجاوز التأثيَّر الحقيقة وفاق الخيال. كل ما هو دفين في عمق سحيق، أصبح أكثر جلاء.

ساد في الصباح صمت مرعب.

انطلق شيء ما من هذه الفوضى: إنه الهدوء.

توقفت الصيحات، وخيّم السكوت. التزم الناس جميعاَ جانب الصمت لفرط شعورهم بالخوف.

حافظ القنصل الفرنسي على أمن الأوروبيين، وعلى النظام. واهتم بالتموين وبالأمور الضرورية جداً. اختار حديقة مكشوفة ليجمع فيها الفرنجة، وهناك أخذوا يحصون بعضهم أو يبكون ذويهم. خلفوا جميعاً وراءهم ثروات وراحة وأمناً. حاول فرانسوا

الابتسام، إنه شديد الشحوب، نظرته مسمرة وكئيبة. ذهب من مجموعة إلى أخرى ليطيّب خاطرها بكلمات عزاء، ويغدق عليها التشجيع والنصائح، وسعى جاهداً كي يوفر الحاجيات الضرورية المفقودة. إنما لم يعد هناك متسع سوى للعزلة ولليأس وللحاجة.

أرسل الباشا خيمة للنساء والأطفال. التفّ حول القنصل الفرنسي أكثر من ألف مسيحي كاثوليكي، بالإضافة إلى المواطنين.

في السوق، تأمل جان - باتيست من الخارج الاضطراب الذي يسكن أعماق ذاته، ذاته التي لم يعد لها حدود. إن الهزة الأرضية هدأت من روعه. إنه في حقيقة الأمر يشاهد بأم عينيه فوضى مشاعره وتشتت أفكاره. وتعبّر الأحجار المتطايرة والمقلوبة رأساً على عقب، عن الانقباض الذي يحسه تجاه الموت وتجاه الحب. ويبين الشق الموجود تحت قدميه، أنه يمكن للإنسان أن يتلاشى في الحب مثلما يمكنه أن يتوارى في باطن الأرض. كان يعيش ويتملكه شعور دائم بأنه سيسقط يوماً في مكان ما دون أن ينسحق. هنا، تأمل جثمانه في شظايا الأرض.

انتزعت الهزة الأرضية جان - باتيست من الأفكار الشريرة القديمة ومن الانفعالات التي أرهقته لأشهر خلت.

تفجر التوتر كله في تلك الليلة.

شعر بأنه تخلص من الماضي. كان لا بد أن تحدث هذه الكارثة ليتخلص من ذكرى.

ضمت الخرائب وليفاً، الحب القديم مسجى هنا، محطم، مجزأ، مكسّر، منقوص، مثل انعكاس لحالته المعنوية التي تثير الشفقة. لقد تطهر العشق، هذا الشعور الحتمي والرهيب مثل الهزة الأرضية. سيصبح بإمكانه الانتقال من الولع إلى الانفعال، الحدث تاريخي ومؤثر، إنه نهاية أمر ما، كل شيء أصبح ممكناً، أصبح بالإمكان حتى أن يموت وأن يحب.

في دكان العطار، انهار جزء من السقف على الرفوف وعلى الطاولة. الأواني الزجاجية تحطمت، والأعشاب سحقت. وكل شيء ما زال مهدداً بالانهيار.

لم تعد الأبواب تغلق على شيء، النوافذ تفتح على الفراغ والمنازل مهدمة والجدران مقوّضة.

من أعماق جوف الأرض، انبعثت أمام جان - باتيست بقايا حياة. وظهرت من جديد أشياء منسية، مخفية بشكل محكم، مخبأة، مرتبة في قعر الخزائن أو السقائف. وبرزت من الأنقاض أحياناً، بقايا ليس لها أي معنى.

طفا الماضي على السطح. كُشف الصميم للعيان. دون خفر. كل شيء ظهر، كل شيء بان.

تجربة نهاية العالم.

الصدمة عنيفة، أصبحت أقل ضجة تنذر بالخطر.

حدث الزلزال على بعد بضعة كيلومترات من حلب، في جسر الشغور، باتجاه اللاذقية. وبعد بضع ثوان وصل إلى المدينة. لم يكن هناك أي سابق إنذار.

ضجة هائلة، و بدأ كل شيء.

تلاشى طيف المدينة، آلاف من الأموات، ثلث المدينة دُمر. الهواء تلوث، الجثث تكدست، امتلأ خيط ماء النهر الرفيع بالقمامة.

أطلال، الكلمة ذاتها التي تطلق على آثار القديس سمعان أطلقت على حلب بعد الزلزال. مع فارق وحيد هو أن الخراب الذي طال كل حي، وكل شارع في حلب هو نكبة حقيقية. في الأطلال القديمة لا يبقى أثر لأي وجود بشري، لا يبقى فيها سوى الذاكرة وبعض من الجمال، الأسوأ قد مضى. لا شيء يمكنه بعد الآن أن يمسها.

اختلفت شدة الهزة وفقاً للمناطق. كدّس الحلبيون على عربات أو على بغال، رزماً مليئة بكل الأشياء التي صمدت.

دمرت الهزة نفسها اللاذقية. تهدّم نصف المدينة. لم يبق في أنطاكية، منزل واحدٌ. جرف نهر العاصي الهائج، كما لم يكن في يوم من الأيام، الجسور والسدود، وحملت مياهه الحطام والجثث. اسكندرونة دمرت. انقلبت سورية رأساً على عقب، على مسافة أربعين فرسخاَ، طُمرت بعض القرى المحيطة بحلب بشكل كامل.

علم جان - باتيست بارتياح، أن معاناة دمشق كانت أقل.

استمرت هزات بسيطة بإخافة الحلبيين حتى التاسع من تشرين الأول.

كيف يمكن إعادة البناء عندما يعرف الإنسان بأن كل شيء يمكن أن يبدأ من جديد، أن يعود، أن يهتز ثانية، أن يضرب ثانية، لا بل وبقوة أكبر.

XXXIII

إنما، بالرغم من نور الشرق الأوسط المبهر، والسماء الفريدة، وبالرغم من جمال المدينة، وأصالة الأمكنة، والغرابة الملموسة، والزلزال الفظيع، فالقصة ما هي سوى قصة عادية. قصة رجل وإمرأة.

وحدة بالغة. إدراك أوضح.

بعد أن تخلف عن بقية الناس، وكرّس حياته وضحى بها من أجل إنسان، لم يعد يتذكر وجهه تماماً، تزوج جان - باتيست من ماري. يجوز أنه قد كف عن البحث عن المستحيل.

زواج بسيط، لكنه تقليدي.

شكلا زوجاَ لم يعد يعاني من جراح ومن آلام. زوجاَ يحتفظ كل واحد لنفسه، في أعماق ذاته وجسده، بندباته، بمخاوفه، بجراحه وبآلامه الحميمة. هدأت اضطرابات القلب. وبعث فقدان الأمل على الشعور بالسكينة.

بدت لهما الانفعالات الداخلية، التي طالما عصفت بهما، وهمية، وغير لائقة، وفاحشة أمام فداحة الكارثة. شعرا بأنهما

قادران على تجاوز أشد الآلام. بعد أن سكنت آلامهما، كانا بحاجة لتنظيم بقائهما على قيد الحياة، تفادياَ للأوبئة. إنهما الآن في خدمة قضية أكبر من قضيتهما.

صمد جان - باتيست أمام عشق رسخ فيه وجمع من حوله كل المشاعر، الأقوى منها والأكثر غموضاَ وجنوناً. كان فريسة لأعنف الاضطرابات. تحرر اليوم من قصته الماضية، لم تعد آثارها سوى خيالات مجردة وصدى مبهم لكل ما كانت تمثله.

هنا شعر بالسكينة، تخلى عن الانتظار، تخلى عن الأمثل. تجنب كل ما يجرحه، لم يعد يسمح للمشاعر بأن تخترقه، هرب من التجربة. ليس حاضراَ كليّاً، لكنه ليس غائباً تماماً.

احتارت ماري في أمر زوجها الجديد. إنه لا يشبه تماماً الصورة التي رسمتها له. وبقي لغزاً بالنسبة لها.

بيد أن لديهما الآن اضطرابات أخرى، غير الاضطرابات الخاصة بهما.

لديهما عذابات أخرى.

مصطلحات

الأيوبيون. سلالة من أصل كردي (١١٦٩ - ١٢٦٠) حكمت مصر وسورية، واليمن لفترة من الزمن. أعظم سلطان في هذه السلالة كان صلاح الدين الأيوبي، المعروف بصلاح الدين.

بيمارستان. مؤسسة استشفائية، ومركز لتعليم الطب. كلمة بيمار من أصل فارسي، وتعني مريض، عاجز، معاق. واللاحقة ايستان يمكن أن تترجم بمكان، منزل مأوى.

الامتيازات الأجنبية. اتفاقات تم توقيعها في العام ١٥٦٩، تسمح للفرنسيين، ولأهل البندقية من قبلهم، بممارسة التجارة، في كامل الإمبراطورية العثمانية، دون تسديد سوى ٥ بالمئة من الرسوم الجمركية، والتمتع بالحماية. تم تجديد هذه الامتيازات مرات عديدة حتى نهاية القرن التاسع عشر.

«دروغمان». (الترجمان).

سلالم الشرق. اسم أطلق في القرن السادس عشر، في الأصل على المنشآت الفرنسية ومن ثم الأوروبية، التي أقيمت في المرافئ الرئيسية، وفي بعض المدن الداخلية في الإمبراطورية

العثمانية. يستفيد فيها الأوروبيون من الامتيازات الممنوحة لهم. وفي أغلب الأحيان كان يقيم فيها أحد القناصل. سهلت هذه المنشآت التجارة مابين الغرب والشرق.

العثمانيون. سلالة عثمان، حكمت من العام ١٢٨١ ولغاية العام ١٩٢٤. وفي عهد سليمان العظيم الذي امتد من عام ١٥٢٠ ولغاية عام ١٥٦٦، وصلت الحضارة العثمانية إلى ذروتها. كانت اسطنبول عاصمة الإمبراطورية.

باشا. لقب تركي، كان يمنح لحكام المقاطعات الكبيرة في الإمبراطورية العثمانية.

الباب العالي. وتعني الأكثر علواً، إنه قصر توبكابي الإمبراطوري في اسطنبول ومركز السلطة العثمانية. وهو من يعين بالتالي مكاتب الصدر الأعظم.

عود. آلة موسيقى ذات أوتار.

n

الصفحة

صدر للمترجمة

- بيمارستان، أماكن الجنون والحكمة (الجنون ومعالجاته في مشافي القرون الوسطى في الشرق الأوسط).

باريس، هارماتان، ١٩٩٨.

- سورية، رحلة في الذات.

باريس، هارماتان، ٢٠٠٠.

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



في عالم ضبابي، لا يصلح حتى أن يكون بعد اليوم مسرحاً لحياته، يسير رجل، وصل إلى أقصى درجات العشق. في الشرق الذي استقبله بزمن وخطاب مختلف، سيتعلم من جديد السير في دروب الحياة.

في هذه الرواية، تتابع فرانسواز كلواريك، مؤلفة كتاب «سورية، رحلة في الذات»، وبشكل مختلف، استكشاف التبادل الثقافي والفلسفي بين الشرق والغرب، هذا التبادل الذي يكشف النقاب عن حقائق العشق والجنون المروعة، الكامنة وراء التحولات الإنسانية، وحقائق عن طهر الكلمة التي تعالج.

فرانسواز كلواريك، حائزة على دبلوم في الفنون الجميلة وعلى دكتوراه في علم النفس المرضي السريري.

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ٩٠ ل.س أو ما يعادلها